مكية

سورة الفرقان

ترتيبها ٢٥ | آياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾

كثرت خيرات الله وعظمت بركاته وجلَّت فضائله وكمُلت أوصافه وعمّ برُّه - سبحانه وتعالى - الذي نزَّل الكتاب الكريم فارقًا بين الحق والباطل والهدى والضلال على عبده النبي الأمي محمد ﷺ؛ ليكون رسولاً خاتمًا للثقلين (الجن والإنس)، ويخوِّفهم من عذاب الله وغضبه وأليم عقابه.

﴿٢﴾ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾

الله له ملك السموات والأرض خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا، وليس له ولد - سبحانه -؛ لأنه لم يلد ولم يولد، وليس له شريك في ملكه، وهو الذي خلق الخلق وحده لم يشاركه أحد في ذلك، فاستحق بذلك العبودية، لا إله غيره، هو الذي خلق - سبحانه وتعالى - الخليقة على أتم وجه وأكمل حال من التصوير والتقدير والتدبير بحكمة وإتقان، فليس في خلقه وصنعه ولا في قضائه وشرعه عيب أو نقص أو خلل؛ سبحانه من إله عظيم!

﴿٣﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾

وعَبدَ الكفار آلهة من دون الواحد القهار لا تقدر على خلق شيء، والله هو الذي خلقها، ولا تدفع ضُرّاً ولا تجلب نفعًا لها ولمن عبدها، ولا تميت حيًا ولا تحيي ميتًا، ولا تبعث أحدًا من قبره، فهي جامدة عاجزة.

﴿٤﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾

وقال الكفار: إن القرآن كذب وافتراء اختلقه الرسول ﷺ وساعده على هذا الاختلاق جماعة أخرى، فقد أتوا بظلم كبير وخطأ فاحش وغلط بين، فالقرآن حق من عند الله، تكلم به وأنزله على رسوله ﷺ.

﴿٥﴾ ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

وقال الكفار عن القرآن: إنه قصص مختلقة وأحاديث منمقة مسطرة في كتب المتقدمين، استنسخها الرسول ﷺ، فهي تكرر عليه في الصباح والمساء.

﴿٦﴾ ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

قل - أيها النبي - لهؤلاء الكفار: إن الله وحده هو الذي أنزل القرآن على نبيه، وهو الذي أحاط علمه بكل شيء، فلا تغيب عنه غائبة في السموات ولا في الأرض، وهو غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب، يمهل العاصي ولا يعاجل بالعقوبة، ويعود برحمته على من عاد إليه.

٧ ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾

وقال الكفار: لماذا هذا الرجل الذي يدعي النبوة - يقصدون محمدًا ﷺ - يأكل الطعام مثلما نأكله نحن، ويذهب في الأسواق للبيع والشراء كحالنا، فهلاَّ بعث الله معه ملكًا يصدقه على ما قال.

٨ ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

أو يأتيه كنزٌ من السماء من مال يغنيه عن التكسب، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها، وقال الكفار للمؤمنين: أنتم لا تتبعون إلا رجلاً أصابه سحر ذهب بعقله!!

٩ ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

انظر متعجبًا كيف افترى الكفار في حقك هذه الأقوال الكاذبة الغريبة التي كأنها أمثالٌ لبعدها عن الحق، ولغرابتها يريدون تكذيبك في دعوتك، فهم أبعد شيء عن الحق، ولا يجدون طريقًا إليه ليخرجوا من ظلمة الكذب الذي افتروه.

١٠ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾

عظمت بركات الله وتقدس اسمه وعمَّت فضائله وكثر خيره وجلَّ جلاله الذي إذا أراد جعل لك - أيها النبي - أفضل مما تمناه لك الكفار، فيجعل لك إذا شاء حدائق غناء، وبساتين فيحاء يتخللها الماء، ويكسوها الجمال والبهاء، ويجعل لك فيها قصورًا فسيحة ودورًا وسيعة.

١١ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

وما كذبك الكفار - أيها النبي -؛ لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، بل كذبوا بالحساب ويوم المآب، والله قد هيأ لمن كذَّب بالقيامة نارًا مستعرة موقدة تحرق أجسامهم وتشوي وجوههم.

١٢ ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾

إذا أبصرت النارُ الكفارَ يوم العرض الأكبر من مكان بعيد، سمع الكفار غليانها وزفيرها؛ بعضها يأكل بعضًا من شدة غضبها على أعداء الله.

١٣ ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾

وإذا وضع الكفار في محل شديد الضيق في النار وقد شُدَّت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل صاحوا من شدة الهول: واثبوراه وا ويلاه.

١٤ ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

فيبكون في النار، ويُقال لهم لا تدعوا بالويل مرة واحدة، بل مرات كثيرة، فلن يفرَّج كربكم ولن يزول همّكم وغمّكم.

١٥ ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: أنار جهنم التي وصفها الله لكم أفضل من جنة النعيم المقيم التي وُعد بها عباد الله الصالحون المخلصون المنيبون، كانت لهم ثوابًا على حسن العمل ومرجعًا للخلود الدائم والنعيم الأبدي.

١٦ ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴾

لهؤلاء الأبرار المخلصين ما يريدون في جنات النعيم مما تشتهيه أنفسهم وتلذُّ أعينهم، ودخول هؤلاء الأبرار الجنة وعدٌ من الله، يسأله - سبحانه - عباده الأخيار الأتقياء هذا الوعد، والله لا يخلف وعده.

١٧ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾

ويوم الحساب يجمع الله الكفار وما كانوا يعبدونه من أشجار وأحجار، فيسأل الله هذه المعبودات بالباطل: أأنتم أغويتم عبادي عن الهدى ودعوتموهم إلى الضلال والردى، أم هم الذين انحرفوا عن الهداية فعبدوكم دون أن تأمروهم بذلك؟!

﴿١٨﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾

قالت هذه الآلهة المزعومة: ننزِّهُك يا ربنا ونقدِّسُك عن فعل هؤلاء المشركين المشين القبيح، تعاليت أن نعبد سواك، أو أن نتولى غيرك، ولكنك - سبحانك - متَّعتَ هؤلاء الكفار بأنواع النعم من المال والجاه والبنين والصحة، فتشاغلوا بها حتى نسوا دينك وغفلوا عن ذكرك، وكانوا قومًا هلكى أدركهم الخذلان عن طاعة الرحمن فباؤوا بالخسران.

﴿١٩﴾ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

فيُقال للكفار: هذه آلهتكم التي عبدتموها بالباطل قد كذَّبتكم في دعواكم وافترائكم، فأنتم الآن لا تقدرون على حماية أنفسكم من العذاب ولا تجلبون لها نصرًا، ومن يمت كافرًا ظالمًا لنفسه بالشرك فله العذاب الشديد في نار جهنم.

﴿٢٠﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

وما أرسل الله قبلك - أيها النبي - رسولاً إلا كان من الناس وليس ملكًا، وكل الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كغيرهم من البشر، والله جعل بعض الناس لبعض ابتلاءً واختبارًا بالإيمان والكفر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والعافية والبلاء، فهل تصبرون على ما قدَّر الله فتعبدونه حق عبادته وتعملون بأوامره وتتركون نواهيه، فطوبى لعبد إذا أُنعِمَ عليه شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فهذا الذي قام بحقوق العبودية، ونال شرف الولاية، وكان ربك بصيرًا بمن يجزع أو يصبر، وبمن يكفر أو يشكر.

﴿٢١﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾

وقال الكفار الذين لا يصدقون بلقاء الله - عز وجل - يوم القيامة ولا يؤملون ذاك الموعد: هلاَّ أنزل الله علينا الملائكة فتشهد للرسول ﷺ بأنه صادق، أو نرى ربنا رأي العين فنسمع منه الرسالة، لقد أعجب هؤلاء الفجرة بأنفسهم كثيرًا، وتجاوزوا الحد في الطغيان، وطلبوا لأنفسهم منزلة لا يستحقونها.

﴿٢٢﴾ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾

وسوف يرى الكفار الملائكة يوم القيامة كما سألوا ذلك، ولن يبشروا بالجنة، ولكن يُخبرون بأن الجنة مكان محرم عليهم لا يُدخلونها.

﴿٢٣﴾ ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾

وقدمنا إلى ما عملوه من المظاهر التي تدل على الخير والصلاح والبر والتقوى فجعلناها باطلة مضمحلة لا أثر لها ولا نفع ولا فائدة كالهباء المنثور في الهواء، وهو ما تشاهده في ضوء الشمس من دقيق الغبار؛ وذلك أن العمل لا يُقبل إلا بشرطين وهما: الإخلاص والمتابعة، بحيث يكون خالصًا لوجه الله وعلى سنة رسول الله ﷺ.

﴿٢٤﴾ ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

أصحاب الجنة في الآخرة أفضل مكانًا من أهل النار، وأحسن منزلة في الجنة في نعيم وسرور وبهجة وحبور، لا تعب ولا نصب ولا خوف ولا حزن.

﴿٢٥﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾

واذكر يوم القيامة الذي تتشقق فيه السماء ويخرج من شقوقها السحاب الأبيض الرقيق، وينزل الله الملائكة فيحيطون بالناس في عرصات القيامة.

﴿٢٦﴾ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾

الملك الحق يوم القيامة للرحمن وحده - جل في علاه -، وهو مالك الدين والحاكم في ذاك الموقف، وليس معه غيره، وكان يوم القيامة على الكفار صعبًا شديدًا لكثرة أهواله وعظيم خطره.

﴿٢٧﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾

وتذكر يوم يعض الكافر الذي ظلم نفسه بالشرك على يديه ندمًا وتأسفًا وغبنًا وتحسرًا وهو يقول: يا ليتني اتبعت الرسول ﷺ واهتديت بهداه وآمنت بما جاء به ولزمت طريقه.

﴿٢٨﴾ ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾

ويقول الكافر متحسرًا: يا ليتني لم أتخذ فلانًا الكافر صاحبًا لي أخلص له الود وأمنحه الحب.

﴿٢٩﴾ ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾

لقد أغواني هذا الصديق الكافر عن القرآن بعد أن بلغني عن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن عادة الشيطان وصفته أن يخذل الإنسان في كل حال، وفي هذا التحذير من مصاحبة الأشرار ومصادقة الفجار؛ لأنهم قد يوردون صاحبهم النار وغضب الجبار.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

وقال الرسول وهو يشكو فعل الكفار من قومه: يا رب إن قومي أعرضوا عن القرآن وهجروه تصديقًا وتلاوةً وتدبرًا وعملاً وتحاكمًا إليه وتبليغًا له، وفي هذا تحذير من هجر القرآن، والناس في ذلك متفاوتون كلٌ بحسبه.

﴿٣١﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

وكما جعل الله للرسول ﷺ أعداء من أشرار قومه سبق أن جعل لكل رسول قبله أعداء من أشرار أقوامهم، فعلى الرسول ﷺ أن يصبر كما صبروا، وكفى بالله لأوليائه هاديًا يدلهم على الصواب، ومعينًا لهم على الأعداء، فبالهداية تنال الولاية، وبالنصر تحصل الرعاية.

﴿٣٢﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

وقال الكفار: هلاَّ أُنْزِل القرآن على الرسول ﷺ جملة واحدة كالكتب السابقة، ولكن الله أنزل القرآن على نبيه مفرقًا ليقوي قلبه ويربيه على مهل، ويزيده طمأنينة وتدبرًا لكتاب مولاه، وقد بيَّن الله كتابه لرسوله في تثبت وتمهل، وفي هذا تدبر القرآن والعناية به وأخذه شيئًا فشيئًا؛ ليرسخ في القلب وينتفع به الإنسان.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

ولا يأتيك الكفار - أيها النبي - بقول أو حجة إلا فتح الله عليك بجواب سديد أحسن من قولهم بيانًا، وأقوى دليلاً، وأصدق برهانًا.

﴿٣٤﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

هؤلاء الكفار يُسحبون على وجوههم إلى النار؛ لأنهم كفروا بالواحد القهار، وهم شر الخليقة عند الله، وأبعدهم عن الرشد وأكثرهم غوايةً وانحرافًا.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾

ولقد أعطى الله موسى التوراة وجعل معه أخاه هارون يعينه على أعباء الرسالة.

﴿٣٦﴾ ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾

وأمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون وقومه، فكذبوا بالصدق وكفروا بالحق وأنكروا براهين الربوبية وأدلة الألوهية، فأهلكهم الله وأبادهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٣٧)

وأغرق الله قوم نوح بالطوفان لما كفروا، ومن كَذَّب برسوله فكأنما كَذَّب بكل الرسل، وجعل الله إغراق قوم نوح عظةً للمتعظين، وهيأ الله لهم في الآخرة عذابًا مخزيًا موجعًا في نار جهنم.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ (٣٨)

وأهلك الله عادًا قوم هود، وثمود قوم صالح وأصحاب البئر، وأممًا كثيرة بين هذه الأمم المذكورة لا يعلمهم إلا الله، طغوا وبغوا فحاق بهم سوء العذاب.

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (٣٩)

وكل الأمم السابقة واللاحقة أوضح الله لهم الأدلة وأقام لهم البراهين ونصب لهم الحجج؛ لئلا يعتذر معتذر، ومع كل هذا البيان من الرحمن كذبوا بالحق واتبعوا الشيطان، فأبادهم الله ونكَّل بهم.

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (٤٠)

ولقد كان كفار قريش يمرون في سفرهم للتجارة على قرية قوم لوط وهي قرية: (سَدُوم) التي مُزِّق أهلها بالحجارة، فلم يتعظوا بما رأوا، بل كانوا لا يصدقون بالبعث بعد الموت؛ ولذلك تجاوزوا الحد في الطغيان.

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ (٤١)

وإذا رآك الكفار - أيها النبي - سخروا منك قائلين: أهذا الذي يَدَّعِي أن الله أرسله إلينا؟

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٢)

لقد أوشك أن يحولنا من عبادة الأصنام والأوثان لقوة البرهان وسطوع البيان، ولكن ثبتنا على عبادتها، وسوف يظهر للكفار إذا حل بهم عذاب الجبار من المهتدي من الضال، والغاوي من الراشد، أهم أم الرسول ﷺ؟

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ۖ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٣)

انظر - أيها النبي - وتعجب ممن أطاع هواه كطاعة الله، وترك عبادة مولاه واتبع الشيطان الذي أغواه، أفأنت تستطيع حفظه من الضلالة وحمايته من الغواية حتى ترده إلى الهداية؟

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٤)

أم تحسب أن أكثر الكفار يسمعون آيات القرآن سماع قبول وانتفاع، أو أنهم يفهمون ما فيها من العبر والعظات، ما هم إلا كالدواب في عدم الاستفادة والفهم لما يسمعونه، بل هم أكثر غواية منها؛ لأن عندهم عقولاً عطلوا الانتفاع بها بخلاف البهائم!!

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ۖ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (٤٥)

ألم تشاهد كيف أن الله مدَّ ظل كل شيء من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؟ ولو أراد الله تثبيته فلا يغيره طلوع الشمس، ثم جعل الله الشمس علامة يُستدل بها على أحوال الظل.

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (٤٦)

ثم يتقلص الظل ويصغر قليلاً قليلاً، فكلما ارتفعت الشمس ازداد نقصان الظل، وهذا برهان على قدرة الرحمن، وأنه المستحق وحده بأن يُعبد من الإنس والجان.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (٤٧)

والله وحده الذي خلق الليل لكم تستترون بظلامه كما تستترون باللباس، وخلق النوم راحة لأبدانكم وقطعًا لأشغالكم، وخلق النهار لتنتشروا فيه للعمل وطلب الرزق.

﴿٤٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾

والله هو الذي أرسل الرياح تحمل الغمام وتبشر بمقدمها العباد بالغيث، وأنزل الله من الغمام ماءً يُتَطَهَّرُ به الناس غسلاً ووضوءًا.

﴿٤٩﴾ ﴿لِّنُحۡيِيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾

ليخرج الله بالماء نباتًا أخضر متاعًا للناس والحيوان بعد أن كانت الأرض قبل ذلك ميتة لا نبت فيها، فالله هو الذي يحوِّل الجدب بالماء إلى نبات أخضر، ويسقي بالماء الخلق الكثير من الناس والحيوان.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾

ولقد حوّل الله الغيث من أرض إلى أرض، فأسقى بعضها ومنع بعضها، ليذكر العباد نعمة الله عليهم بإنزال الماء فيشكروه، ويذكروه بالتوبة والاستغفار إذا منع منهم الغيث، لكن أكثر العباد أبى إلا الجحود والكفران بآيات الله ونعمه، كنسبتهم المطر إلى نوء كذا وكذا.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾

ولو أراد الله لأرسل في كل قرية رسولاً يدعوهم إلى التوحيد ويخوفهم عقاب الله، ولكن الله أرسل محمدًا ﷺ إلى العالمين.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾

فلا تطع الكفار - أيها الرسول - في ترك شيء مما أمرك الله به من التبليغ، ولا تكتم شيئًا، بل اجتهد في الدعوة والنصح، وجاهد الكفار بهذا القرآن جهادًا كبيرًا لا فتور فيه ولا انقطاع ولا كسل.

﴿٥٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾

والله هو الذي خلط البحرين: العذب الزلال الذي يشرب منه الناس، والملح شديد الملوحة الذي لا يُشرب منه، وخلق بين البحرين حاجزًا يمنع كل واحد أن يختلط بالآخر، فلا يصل هذا إلى هذا، ويبقى كل بحر على طبيعته.

﴿٥٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾

والله الذي خلق من مني الرجل والمرأة أناسًا من الذكور والإناث، فصار بينهم قرابة النسب وقرابة المصاهرة، والله قدير على أن يخلق ما يشاء لا راد لحكمه.

﴿٥٥﴾ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾

ومع ظهور هذه البراهين وكثرتها ودلالتها على قدرة الله فإن الكفار عبدوا من دون الواحد القهار ما شاؤوا من أشجار وأحجار، لا تجلب المنافع ولا تدفع المضار، والكافر يعين الشيطان على معاداة الله وعبادة غيره بالإشراك به، ويساعد غيره من شياطين الإنس والجن على معصية الله تعالى.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾

وما أرسل الله نبيه ﷺ إلا ليبشر عباده الصالحين بجنات النعيم وينذر أعداءه الكفار بعذاب الجحيم.

﴿٥٧﴾ ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾

قل - أيها النبي للناس -: لا أريد منكم أجرةً على دعوتي فأجري على الله، لكن من أراد أن يؤمن بالله ويتبع رسوله ﷺ ويتصدق في سبيل الله فثواب ذلك له عند الله وخيره يعود إليه.

٥٨ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾

واعتمد في كل أمورك على الواحد الأحد وفوِّض الأمر إليه وثق بولايته ونزّهه عن العيب والنقص ومجِّدهُ بصفات الكمال وكفى به - سبحانه - مطلعًا على سيئات العباد، لا يخفى عليه شيء، فقد أحصى أعمال الخليقة وسوف يحاسبهم عليها.

٥٩ ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۛ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾

الله وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما فله التدبير المطلق، وهو المالك وحده لكل مخلوق، وهذا الخلق كان في ستة أيام، ثم استوى - سبحانه - على عرشه، أي علا وارتفع استواءً يليق بجلاله، وهو الرحمن الذي عمَّت رحمته وفاض خيره وسحَّ جوده، فاسأل - أيها الرسول - بذلك الخبير وهو الله - سبحانه - وحده، فهو العالم بما يجب له - سبحانه - من صفات الكمال والعظمة والجلال.

٦٠ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

وإذا طُلب من الكفار أن يسجدوا لله وحده الذي هو الرحمن ذو الرحمة العامة الشاملة حينها ينكر الكفار ذلك ويأبون السجود والعبودية لله، ويقولون: ما نعرف الرحمن، كيف تأمرنا بالسجود طاعةً لأمرك؟ ويزيدهم طلب الرسول ﷺ منهم السجود لله كِبْرًا وعتوًا.

٦١ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾

عَظُمَتْ بركات الله، وتقدس اسمه، وجلَّ جلاله، وكثُر خيره، فهو الذي خلق في السماء نجومًا عظيمةً في منازلها، وجعل في السماء شمسًا مضيئةً وقمرًا منيرًا تدل على عظمته وقدرته ووحدانيته.

٦٢ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

فهو - سبحانه - خالق الليل والنهار، كل واحد منهما يخلف الآخر ويأتي بعده بنظام دقيق، وحكمة متناهية، وفي هذا دلالة على عظمة الخالق وحكمته لمن أراد أن يتعظ ويتدبر أو يشكر الله على آلائه ويحمده على نعمه.

٦٣ ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

وعباد الله الأتقياء الأبرار إذا مشوا على الأرض مشوا بتواضع وسكينة وإخبات، وإذا تكلم معهم السفهاء الجهلاء بسوء ردّوا عليهم باللين واللطف والقول الجميل، وأجابوهم بجواب حسن يسلمون فيه من الذنب، ومن أذى الجاهل، فقد أحسن الله أدبهم في المشي والقول والخطاب ومعاملة الناس، وفي سائر أحوالهم.

٦٤ ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾

والذين يقومون الليل في صلاة وتلاوة ودعاء وبكاء متضرعين خاشعين أذلاء في حالة السجود والقيام.

٦٥ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

وهم مع كثرة عبادتهم وإخلاصهم واجتهادهم في الطاعة يخافون عذاب الله؛ لأن عذاب الله يلازم من يستحقه كما يلازم الغريم غريمه ليستوفي حقه.

٦٦ ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

قبُحَتْ نار جهنم دار إقامة وساءت دار قرار، ما أشد عذابها، وأقسى نكالها - نعوذ بالله منها-.

٦٧ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

وهؤلاء المؤمنون الأتقياء إذا أنفقوا من أموالهم لزموا العدل والقصد ولم يبذِّروا في الإنفاق ولم يبخلوا في العطاء، بل هم وسط بين الإسراف والشح، جمُلت سيرتهم واعتدلت طريقتهم ولزموا الصراط المستقيم في كل حال.

٦٨ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾

والذين لا يشركون بالله ولا يعبدون غيره ولا يدعون سواه بل يفردونه بالعبودية والوحدانية، ولا يقتلون النفس المعصومة التي حرَّم الله قتلها إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفسٍ بالعدوان، وهم

يحفظون فروجهم عن الزنا إلا بالحلال مع زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم، ومن يُقْدِم على شيء من هذه الكبائر يعاقبه الله في الآخرة عقابًا مؤلمًا موجعًا.

﴿٦٩﴾ ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾

يضاعف الله لصاحب هذه الكبائر العذاب يوم القيامة ويمكث في العذاب زمنًا طويلاً وهو ذليل حقير.

﴿٧٠﴾ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

لكن من تاب إلى الله من الخطايا والذنوب توبة نصوحًا وآمن إيمانًا راسخًا وأتبع ذلك بعمل الصالحات فالله يتجاوز عن خطاياه، ويعفو عن سيئاته ويبدلها حسنات إذا أقلع عن ذنوبه وندم على ما سلف منه، والله كثير الغفران لمن تاب، واسع الرحمة بمن أناب.

﴿٧١﴾ ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾

ومن تاب من فِعْل المعاصي وعاد إلى ربه بالإنابة وأكثر من عمل الصالحات فرجوعه إلى الله صحيح، وتوبته صادقة، والله يقبل توبته ويغسل حوبته.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾

والذين لا يشهدون كذبًا ولا يحضرون مجالس الكذب، فهم لا يقولونه ولا يسمعونه ولا يرضون به، وإذا مرّوا بأهل الباطل والعبث والسفاهة أعرضوا عن ذلك وتنزَّهوا عن هذه الأفعال، فلا يخالطون أهلها ولا يرضون بأفعالهم.

﴿٧٣﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾

والذين إذا خُوِّفوا بكلام الله وكلام رسوله ﷺ اتقوا وخشعوا وخافوا ولم يعرضوا ولم يتغافلوا كأن في آذانهم صممًا عن السماع، وكأن في أبصارهم عمى عن الرؤية، بل قلوبهم واعية، وآذانهم سامعة، وبصائرهم حية، يسجدون لربهم مطيعين مخبتين.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

ويدعون الله قائلين: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا الصالحين البررة، واجعلنا أسوةً للأخيار، وقدوة للأبرار يقتدي بنا غيرنا في الخير.

﴿٧٥﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمٗا ﴾

هؤلاء الذين اتصفوا بالصفات الجميلة التي ذُكرت في هذه الآيات من عباد الله الصالحين يكرمهم الله بأرفع الدرجات في الجنة بسبب صبرهم على الطاعات، وصبرهم عن المعاصي والمخالفات، وصبرهم على أقدار الله المؤلمة، وسوف يُقابلون في الجنة بالترحاب والتحايا والتسليم والبشرى من الملائكة، مع حياة الأمن والسلامة، والبهجة والسرور الدائم.

﴿٧٦﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾

هؤلاء الأولياء الأبرار ماكثون في الجنة أبدًا من غير موت ولا خروج منها، طابت -والله- منزلاً، وحسنت مستقرًا، من حسنها لا يريدون عنها انتقالاً، ومن طيبها لا يبغون عنها ارتحالاً، فما أحسن المقام في دار السلام بجوار الملك العلام.

﴿٧٧﴾ ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا ﴾

يخبر الله أنه لا يبالي بالخلق ولا يعبأ بالعباد لولا أنهم يعبدونه ويسألونه، فبدعاء العبادة ودعاء المسألة يُرفع العذاب ويُنْزِلُ الثواب، وقد كذبتم - أيها الكفار - بآيات الواحد القهار، فسوف يلزمكم العذاب كما يلزم الغريم غريمه لا يفارقكم ولا تفارقونه.

مكية

سورة الشعراء

ترتيبها ٢٦

آياتها ٢٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿طسٓمٓ﴾

هذه الحرف الله أعلم بمرادها، ولها مقاصد جليلة ومعانٍ نبيلة.

﴿٢﴾ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

هذه آيات القرآن الذي بيَّن كل أمر وأوضح كل شيء، وفصل بين الحق والباطل والرشد والغي.

﴿٣﴾ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾

لعلك - أيها النبي - تهلك نفسك من كثرة شفقتك على هداية قومك وشدة حرصك على إيمان أمتك؛ لأنهم لم يؤمنوا بما أرسلت به، ولم يفعلوا ما دعوتهم إليه، فلا تهلك نفسك وكِل الأمر إلى ربك.

﴿٤﴾ ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾

لو أراد الله نَزَّل على الكفار من السماء آية باهرة ومعجزة خارقة تضطرهم إلى التصديق، وتخضع لها أعناقهم ذليلة، ولكن الله ما أراد ذلك؛ ليكون التصديق بعلم الغيب اختيارًا.

﴿٥﴾ ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾

وما يُنْزل على الكفار من قرآن من الرحمن حديثٍ في إنزاله، يأتي شيئًا بعد شيء، يعظهم ويذكرهم ويبين لهم ويخبرهم إلاَّ صدوا عنه ولم يقبلوه؛ عنادًا واستكبارًا.

﴿٦﴾ ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

لقد كذَّب الكفار بالقرآن وسخروا منه، فسوف يعلمون إذا وقع بهم العذاب عاقبة ما فعلوا وجزاء ما صنعوا.

﴿٧﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾

كيف كفروا بالله وما نظروا إلى الأرض التي خلقها الله، كيف أنبت فيها من أنواع النباتات وأصناف الثمرات مع تعدد الألوان وتباين الأشكال، وهذا دليل على قدرته - سبحانه - واستحقاقه للعبودية وحده.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

إن في إخراج النبات من الأرض برهانًا ساطعًا على تمام قدرة الله ووحدانيته؛ تقدَّس اسمه، وما أكثر الناس بمؤمنين بآيات الله بل غالبهم كفار.

﴿٩﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

وإن ربك المالك المدبر المتصرف لهو العزيز على كل أحد، الغالب لكل مخلوق، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ إحسانه سائر البرية.

﴿١٠﴾ ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

واذكر - أيها النبي - للناس يوم نادى الله كليمه موسى - عليه السلام - وقال له: اذهب إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر.

﴿ ١١ ﴾ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

وهم قوم فرعون، وقل لهم: ألا تخشون عذاب الله وتحذرون غضبه، وتتركون ما أنتم عليه من غواية وفساد؟

﴿ ١٢ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

قال موسى لربه: يا ربِّ أخشى أن يكذبني فرعون وقومه ويردون ما جئتُ به.

﴿ ١٣ ﴾ ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾

وأخشى إذا كذبوني أن يَمْتلئ صدري غمًّا وهمًّا ويُحبس لساني عن دعوتهم إلى التوحيد، فأرسل يا ربي جبريل بالوحي إلى أخي هارون؛ ليكون عونًا لي في أداء الرسالة وتبليغ الدعوة.

﴿ ١٤ ﴾ ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾

وسبق أنني قتلتُ منهم نفسًا فهم يطالبونني بدم، فأنا مذنب عندهم، فأخشى أن يقتلوني بالرجل الذي قتلته.

﴿ ١٥ ﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾

قال الله لموسى: لن يكون هذا، ولن يصلوا إليك ولن يقتلوك، ومن كان في رعاية الله فلا يخاف أحدًا، وأمر الله موسى أن يذهب هو وهارون بالمعجزات إلى فرعون وقومه، فإن الله معهم بالعلم والنصر والتأييد والحفظ، يسمع كلامهم ويعلم حالهم.

﴿ ١٦ ﴾ ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وأمر الله موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون، وأن يخبراه بأنهما مرسلان من عند الله رب العالمين الذي له الخلق والأمر، جل في علاه.

﴿ ١٧ ﴾ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

وطلب موسى وهارون من فرعون أن يترك بني إسرائيل ويعتقهم من عبوديته واستبداده؛ ليخرجوا من مصر.

﴿ ١٨ ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾

قال فرعون لموسى بكبر وصلف ومنة: أنسيت يا موسى أنك كنت طفلاً في قصرنا وقد ربيناك وبقيت في نعمتنا سنين من عمرك؟

﴿ ١٩ ﴾ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وارتكبت جُرمًا عظيمًا يوم قتلت القبطي وهربت وأنت ممن جحد نعمتي، وأنكر ربوبيتي، وكفر جميلي.

﴿ ٢٠ ﴾ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

فأجاب موسى فرعون قائلاً: نعم قتلت ذاك الرجل قبل النبوة وقبل ما يُوْحِي إليَّ ربي ويكرمني بالرسالة.

﴿ ٢١ ﴾ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

فهربتُ من أرضكم إلى أرض مدين؛ لأنني خفتكم على نفسي فأكرمني ربي بالنبوة والعلم وشرَّفني بالرسالة.

﴿ ٢٢ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

وأنت - يا فرعون - تمنُّ عليّ تربيتك لي في بيتك وأنت الذي جعلت بني إسرائيل عبيدًا لك في خدمتك تذبح الأبناء وتستحيي النساء.

﴿ ٢٣ ﴾ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فسأل فرعون موسى عن رب العالمين الذي يدعو إلى توحيده بالعبادة، ما صفته سبحانه؟

﴿٢٤﴾ ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

فأجاب موسى: ربي هو المالك المتصرف في الخلق المدبر لشؤون الكون، الحاكم لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، فإن أيقنتم بذلك فآمنوا.

﴿٢٥﴾ ﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾

فسأل فرعون من حوله من السادة والأعيان: ألا تسمعون معي؟ متعجبين من قول موسى المنكر الغريب!

﴿٢٦﴾ ﴿ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

قال موسى: إن ربي الذي أدعو إلى عبادته وطاعته هو الخالق لكم ولآبائكم المتقدمين، فكيف تعبدون فرعون وهو مخلوق له آباء قد ماتوا؟

﴿٢٧﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴾

قال فرعون مغضبًا من موسى يخاطب قومه: إن موسى الذي يدعي أنه رسول قد جُن وذهب عقله، فهو يتحدث بأحاديث المجانين.

﴿٢٨﴾ ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

قال موسى متابعًا الأدلة والبراهين: إن ربي الذي أرسلني هو خالق المشرق والمغرب وما بينهما وما فيهما من نور وظلام وهو مدبرهما، فحقه - سبحانه - أن يُعبد وحده ولا يُشرك به شيء إن كانت لكم عقول تفكر وتعتبر.

﴿٢٩﴾ ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾

فهدّد فرعون موسى قائلاً: لئن عبدت إلهًا غيري لأحبسنك؛ نكالاً لك على مخالفتك أمري.

﴿٣٠﴾ ﴿ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴾

قال موسى: كيف؛ أتسجنني وأنا قد جئت بأدلة قاطعة، وبراهين ساطعة على صحة رسالتي وصدق دعوتي؟!!.

﴿٣١﴾ ﴿ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال فرعون: إن كنت يا موسى صادقًا فأرنا تلك البراهين التي ذكرتها.

﴿٣٢﴾ ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴾

فرمى موسى بالعصا من يده فتحوَّلت بإذن الله ثعبانًا عظيمًا يمشي على الأرض حقيقة وليست خيالاً كما يفعل السحرة.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع من غير برص ولا بهق تبهر من نظر إليها.

﴿٣٤﴾ ﴿ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴾

قال فرعون لسادة قومه حوله مكذبًا لموسى: إن موسى ساحرٌ ماهرٌ في السحر حاذق فيه وليس برسول كما يدعي.

﴿٣٥﴾ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾

ومقصود موسى أن يخرجكم من أوطانكم بهذا السحر الذي أتى به ويستولي على أرضكم، فماذا تشيرون عليَّ به في شأنه لآخذ برأيكم.

﴿٣٦﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

فقال السادة من قوم فرعون له: أجِّل أمْرَ موسى وهارون وأرسل في جميع المدن جنودًا يجمعون السحرة.

﴿٣٧﴾ ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾

وسوف يأتي الجنود بكل ساحر حاذق في سحره، ماهرٍ في فنِّه ليواجه موسى بسحر مثل سحره.

﴿٣٨﴾ ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

فجمع فرعون السحرة ووقَّت لهم يومًا معلومًا وهو وقت الضحى من يوم زينتهم في الاحتفال الذي يجتمعون من أجله ويفرحون فيه ويتجملون.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾

وأُمر الناس أن يجتمعوا لمشاهدة الصراع بين موسى والسحرة؛ لأن في اجتماعهم قوة لسحرة فرعون.

﴿٤٠﴾ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

عسى أن نقتدي بالسحرة إذا غلبوا موسى، ونَثْبُتَ على ديننا.

﴿٤١﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

فلما وصل السحرة إلى فرعون سألوه: هل لنا أجرة عندك من مال أو سلطة إذا غلبنا موسى وقهرناه.

﴿٤٢﴾ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

قال فرعون: نعم، إن انتصرتم على موسى أكرمتكم بالأجرة، وشرفتكم بالقرب مني، فأغراهم بالمال والجاه.

﴿٤٣﴾ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾

قال موسى للسحرة: ألقوا على الأرض ما تحبون إلقاءه من العصي والحبال؛ لتكونوا البادئين بالإلقاء.

﴿٤٤﴾ ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

فطرح السحرة على الأرض ما عندهم من حبال وعصي، وخُيِّلَ إلى الناظرين أنها ثعابين تسعى، وحلفوا بعزة فرعون إنهم يغلبون موسى هذا اليوم.

﴿٤٥﴾ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

فطرح موسى عصاه من يده فحوَّلها الله حية عظيمة داهية ابتلعت في بطنها كل ما زوَّروا من سحر.

﴿٤٦﴾ ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾

فلما أبصر السحرة عصا موسى وما فعلته بسحرهم علموا أنه صادق وأنهم كاذبون، فآمنوا بالله وسجدوا له وحده سبحانه.

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وقالوا بلسان الاعتراف: آمنا برب العالمين الذي خلقنا، فهو يستحق العبادة وحده لا إله إلا هو.

﴿٤٨﴾ ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

وهو - سبحانه - رب موسى وهارون، فالسجود له وحده، وموسى وهارون رسولان عبدان كريمان.

﴿٤٩﴾ ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

فأنكر فرعون وتعجب مما حصل، وقال للسحرة: كيف صدقتم بنبوة موسى ولم آذن لكم؟ وقال مكابرًا: إن موسى هو كبيركم وإمامكم في تعلم السحر، فهو الذي علمكم إياه، فسوف يظهر لكم ما ينتظركم من عذاب عندي، ثم أقسم الفاجر للسحرة ليقطعن أيديهم وأرجلهم من خلاف: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو الضد، وبعد أن يقتلهم ويقطعهم سوف يصلبهم كلهم نكالاً لهم على متابعة موسى وتصديقه!!

﴿٥٠﴾ ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

فردَّ السحرة على فرعون وقالوا: ليس علينا ضرر فيما تهددنا به من عذاب الدنيا، فالخطب يسير في جنب ما ينتظرنا من نعيم أبدي وخلود سرمدي عند الله الواحد الأحد.

﴿٥١﴾ ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

إنا نأمل ونرجو أن يعفو الله عنا ما فعلناه من شرك وسحر، وأن يتجاوز عن سيئاتنا؛ لأننا أول من آمن من قوم فرعون.

﴿٥٢﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

وأوحى الله إلى موسى: أن اخرج بمن آمن معك من بني إسرائيل ليلاً، ليكون أستر لكم، وسوف يتبعكم فرعون وجنوده قبل أن تصلوا إلى البحر.

﴿٥٣﴾ ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

فلما سمع فرعون بخروج موسى وقومه أرسل جنودًا يجمعون الجيش من مدن مصر كافة؛ ليدرك موسى وقومه.

﴿٥٤﴾ ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

قال فرعون لقومه: إن موسى ومن خرج معه جماعة حقيرة صغيرة قليلة العدد.

﴿٥٥﴾ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾

وإن موسى وقومه قد أغضبونا غاية الغضب، وملؤوا صدورنا عليهم حقدًا وغيظًا؛ لأنهم عصوا أمرنا وعبدوا غيرنا.

﴿٥٦﴾ ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾

وإنا كلنا منتبهون ومستعدون لهم وعلى يقظة تامة لأفعالهم.

﴿٥٧﴾ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

فأخرج الله فرعون وقومه من أرض مصر بحدائقها الغناء وبساتينها الفيحاء وعيونها العذبة.

﴿٥٨﴾ ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾

وترك فرعون وقومه وراءهم خزائن الذهب والفضة والأموال المكدسة والبيوت الجميلة.

﴿٥٩﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

وكما أخرج الله فرعون وقومه من أرضهم جعلها من نصيب بني إسرائيل يتمتعون بخيراتها.

﴿٦٠﴾ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾

فأدرك فرعون وجيشه موسى ومن آمن معه وقت إشراق الشمس وكان صباحًا مباركًا نجى الله فيه موسى وأهلك فرعون. وهو يوم عاشوراء.

﴿٦١﴾ ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

فلما أبصرت كل طائفة من قوم موسى وقوم فرعون الأخرى قال أصحاب موسى: إن فرعون وجنوده قد لحقوا بنا وقد دنا هلاكنا.

﴿٦٢﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

فردَّ موسى على قومه وقال: ليس الأمر كما ظننتم فلن يدركنا فرعون وجنده؛ فالله معي بنصره، وسوف يهديني لسبيل النجاة.

﴿٦٣﴾ ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

وأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانقسم البحر اثني عشر طريقًا بعدد قبائل بني إسرائيل، فأصبحت كل قطعة من البحر كالجبل الكبير.

٦٤ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴾

وقرَّب الله فرعون وقومه حتى عبروا البحر ليتم إغراقهم فيه.

٦٥ ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾

وأنجى الله موسى وقومه من الغرق فلم يهلك منهم أحد حتى اجتازوا البحر.

٦٦ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾

ثم أغرق الله في البحر فرعون وقومه بعدما اكتمل دخولهم فيه.

٦٧ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

إن في نجاة موسى وهلاك فرعون دليلاً قاطعًا وبرهانًا ساطعًا على قدرة الله، وما أصبح أكثر أتباع فرعون مؤمنين مع رؤية هذه العلامات العظيمة.

٦٨ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المدبر لهو العزيز، فبعزته أهلك فرعون ومن معه، وبرحمته نجى موسى ومن معه.

٦٩ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

واذكر لقومك - أيها النبي - قصة إبراهيم لما فيها من العبر.

٧٠ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

يوم قال إبراهيم لقومه -منكرًا عليهم كفرهم بالله-: ما هذا الشيء الذي تعبدونه من دون الله عز وجل.

٧١ ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾

قال قوم إبراهيم له: نحن نعبد هذه الأصنام ونعكف على عبادتها معتقدين أنها تنفع وتضر.

٧٢ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾

قال إبراهيم -منكرًا عليهم جهلهم في عبادة الأصنام-: هل الأصنام تسمعكم إذا دعوتموها وهي جامدة لا تسمع ولا تعي؟!

٧٣ ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾

وهل الأصنام تجلب لكم نفعًا بعبادتكم لها أو يحدث لكم منها ضرر إذا تركتم عبادتها؟!

٧٤ ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

قالوا: لا نفع من عبادتها ولا ضرر من ترك هذه العبادة، ولكننا قلدنا الآباء في عبادتهم لها وفعلنا فعلهم.

٧٥ ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾

قال إبراهيم لقومه: هل تدبرتم فعلكم في عبادة أصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر.

٧٦ ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾

وقد أخطأتم أنتم وآباؤكم السابقون في عبادة أصنام لا تجلب نفعًا لكم ولا تدفع عنكم ضرًا.

٧٧ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فإن كل ما تعبدونه غير الله أعداء لي سوف أحاربهم، أما رب العالمين - سبحانه - فسوف أعبده وحده لا أشرك به شيئًا.

٧٨ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾

والله وحده هو الذي خلقني في أحسن صورة، وهو الذي يوفِّقني لطريق الخير في الدنيا والآخرة.

﴿٧٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾

وهو الذي خلق لي الطعام والشراب، فهو الرازق وحده المنعم بكل نعمة.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

وإذا أصابني مرض فلا يعافيني منه إلا الله وحده، فهو الذي قدر الداء وأنزل الدواء.

﴿٨١﴾ ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾

وهو الذي يتوفى نفسي إذا حان أجلي ثم يبعثني من قبري حيًا، لا يحيي ولا يميتُ غيره.

﴿٨٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾

والله وحده الذي أرجوه أن يعفو عن سيئاتي ويتجاوز عن ذنبي يوم الحساب والجزاء.

﴿٨٣﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ثم دعا إبراهيم ربه فقال: ربِّ تفضل عليَّ بعلم وفهم لأعبدك على بصيرة، واجمع بيني وبين الأتقياء في جنات النعيم، فسأل خيري الدنيا والآخرة.

﴿٨٤﴾ ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾

وقدِّر لي يا ربِّ ذكرًا جميلاً وثناء حسنًا في كل جيل يأتي من بعدي إلى يوم القيامة فحقق الله له ما سأل، فعليه الصلاة والسلام دائمًا وأبدًا.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

وأسألك يا ربِّ أن تجعلني من العباد الأتقياء الذين تورثهم الإقامة في الجنة.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

وتجاوز يا ربِّ عن أبي المشرك الضال، وهذا قبل أن يظهر لإبراهيم عداوة أبيه لله، فلما ظهر له ذلك تبرأ من أبيه.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾

ولا تفضحني على رؤوس الأشهاد يوم المعاد، يوم يخرج الناس من القبور ليوم النشور.

﴿٨٨﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾

يوم القيامة لا ينفع المال صاحبه، ولا الأبناء آباءهم إذا لم يكونوا من الصالحين.

﴿٨٩﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

ولا ينجو في ذاك اليوم إلا من جاء ربَّه بقلب سليم من الكفر والنفاق، وكل ما يكرهه الله.

﴿٩٠﴾ ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وقرَّب الله الجنة لأوليائه الأتقياء الذين أطاعوه واجتنبوا معصيته.

﴿٩١﴾ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾

وأظهر الله النار للكفار الذين أخطؤوا سبيل الهداية وسلكوا طريق الغواية.

﴿٩٢﴾ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾

ويقال لهم يوم القيامة -تبكيتًا-: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها في الدنيا؟!

﴿٩٣﴾ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾

هذه الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله وتدعون أنها تجلب لكم النفع وتدفع عنكم الضر، هل تنصركم هذه الآلهة فتدفع عنكم العذاب؟ أو تنتصر هي فتدفع عنها العقاب؟ فهي لا ناصرة ولا منصورة.

﴿٩٤﴾ ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾

فجمع الله عبَّاد الأصنام وأصنامهم وكبهم على وجوههم في النار، فأئمة الضلال وأتباعهم يُجمعون في نار جهنم.

﴿٩٥﴾ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

وأعوان الشيطان يدخلون مع عبدة الأوثان في نار جهنم لا ينجو منهم أحد.

﴿٩٦﴾ ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾

فقال الكفار الفجار في النار وهم مختلفون فيما بينهم يتنازعون أمرهم.

﴿٩٧﴾ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

تالله إننا كنا في الدنيا في غواية واضحة؛ حيث عبدنا غير الله وكفرنا به سبحانه.

﴿٩٨﴾ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

كيف نسوي في العبادة ونشرك في الطاعة الأوثان مع الله - عز وجل - المستحق العبادة وحده، وهو الخالق الرازق.

﴿٩٩﴾ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

وما أغوانا وحرفنا عن الهداية إلا أهل الإجرام من عبدة الأصنام الذين زينوا لنا الباطل.

﴿١٠٠﴾ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾

فليس لنا اليوم أحدٌ يشفع لنا عند الله لينجينا من العذاب؛ لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة.

﴿١٠١﴾ ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾

وليس لنا هذا اليوم أحدٌ صادق في محبتنا يحنو علينا ويواسينا فيما أصابنا.

﴿١٠٢﴾ ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فياليت لنا عودة إلى الحياة الدنيا فنصدق بما جاءت به الكتب وما بُعثت به الرسل، ولكن هيهات.

﴿١٠٣﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

إن في قصة إبراهيم المتقدمة لعظة للمتعظين، وما أصبح أكثر من سمع هذه القصة بمصدق ولا مهتدٍ.

﴿١٠٤﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك لهو العزيز الذي عزَّ فانتقم من أعدائه، الرحيم الذي لطف بأوليائه.

﴿١٠٥﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

وقد كذبت قوم نوح دعوة نبيهم نوح ولم يؤمنوا به، فكأنهم كذبوا كل الرسل؛ لأن دعوة الرسل واحدة.

﴿١٠٦﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال نوح لقومه وهو أخوهم في النسب: ما لكم لا تخافون الله بتوحيده وترك عبادة غيره.

﴿١٠٧﴾ ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

إن الله أرسلني لكم رسولاً أمينًا على حمل الرسالة وتبليغ الدعوة.

﴿١٠٨﴾ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فخافوا الله باتباع أمره واجتناب نهيه، وأطيعوني بتصديق ما بُعثتُ به.

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ولا أطلب منكم أجرة على تكاليف دعوتي وتعب رسالتي، فأجري وثوابي على الله مالك أمري.

﴿١١٠﴾ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فخافوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وأطيعوني باتباعي وتصديقي فيما أُرسلتُ به.

﴿١١١﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾

قال قوم نوح له: كيف نصدقك فيما أُرسلت به، والذين آمنوا بك هم سقط الناس وضعفاؤهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

فرد عليهم نوح قائلاً: لست مسؤولاً عن نسب الناس والمهن التي يعملونها، إنما أمرني ربي بدعوتهم للإيمان، فالعبرة بالعمل لا بالحسب والنسب والمهن.

﴿١١٣﴾ ﴿ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴾

جزاء كل عامل على الله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فهو يعلم ما ظهر وما بطن، ولو كنتم تدركون صحة هذا لما تكلمتم بالباطل.

﴿١١٤﴾ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

ولن أطرد من مجلسي من صدَّق برسالتي بسبب فقرهم أو المهنة التي يعملونها من أجل أنكم طلبتم ذلك.

﴿١١٥﴾ ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾

ما أنا إلا مرسل من الله أخوف الكفار غضب الجبار وعذاب النار، وأنذرهم غاية الإنذار.

﴿١١٦﴾ ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾

فترك قوم نوح الحوار إلى التهديد والوعيد، وهي عادة صاحب الباطل المغلوب على أمره، وقالوا له: لئن لم تترك -يا نوح- هذه الرسالة التي تدعو إليها لنرمينك بالحجارة حتى نقتلك.

﴿١١٧﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴾

فلما سمع نوحٌ هذا التهديد دعا على قومه وقال: يا ربِّ إن قومي كذبوا دعوتي وردوا رسالتي.

﴿١١٨﴾ ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

فاحكم بيني وبينهم بحكمك العادل الذي تنجي به الصادق الموحد، وتهلك به الكافر الملحد، وأسألك أن تخلصني ومن آمن معي من العذاب.

﴿١١٩﴾ ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾

فأنجى الله نوحًا ومن ركب معه في السفينة التي ملأها بأنواع المخلوقات.

﴿١٢٠﴾ ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾

ثم أغرق الله - عز وجل - من كفر بنوح ولم يركب معه في السفينة بعدما نجاه ومن آمن معه.

﴿١٢١﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

إن في قصة نوح ونجاته ومن معه وإهلاك الكفار لعلامة واضحة وعظةً عظيمة للناس، وما أصبح الذين سمعوا هذه القصة مؤمنين بالله متبعين لرسله، فالأكثر كافر.

﴿١٢٢﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المتصرف المدبر عزيز في انتقامه ممن كفر، رحيم بمن آمن به وشكر.

﴿١٢٣﴾ ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

كذبت قبيلة عاد رسولهم هودًا - عليه السلام -، فكأنهم كذبوا كل الرسل؛ لأن دعوة الرسل واحدة، وكلهم يدعون إلى التوحيد.

﴿١٢٤﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال هود لقومه عاد وهو أخوهم في النسب: ألا تخافون الله بإفراده بالعبودية وإخلاص الطاعة له؟

﴿١٢٥﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

إن الله أرسلني إليكم لأرشدكم إلى الطريق المستقيم وأنا أمين على حمل الرسالة وتبليغها لا أزيد فيها ولا أنقص.

﴿١٢٦﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاحذروا عذاب الله بطاعته واجتناب معاصيه، واتبعوني أدلكم على طريق الهداية.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وما أطلب منكم أجرةً على دعوتي لتبليغ رسالتي لا مالاً ولا جاهًا ولا عَرَضًا من عَرَضِ الدنيا، فأجري على ربي الذي خلق الكون وتصرف فيه.

﴿١٢٨﴾ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾

ما لكم تبنون بكل محلٍ عالٍ مرتفع منزلاً تشرفون منه على الناس كبرًا وبذخًا وإسرافًا وليس في ذلك نفع في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

وتبنون قصورًا شاهقة وحصونًا منيعة كأنكم لن تموتوا ولن تنتقلوا من هذه الدنيا، وهي لا تمنعكم من الفناء.

﴿١٣٠﴾ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾

وإذا نكَّلتم بأحد وبطشتم به قتلاً أو ضربًا فعلتم ذلك بقسوةٍ وظلم وشدة.

﴿١٣١﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاحذروا عذاب الله بعبادته والعمل بمرضاته، واتبعوني بتصديق دعوتي واتباع رسالتي

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾

واحذروا غضب الله بطاعته، فهو الذي منحكم ما تعلمون من أنواع النعم التي لا تعد ولا تُحصى.

﴿١٣٣﴾ ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾

منحكم الأنعام من إبل وبقر وغنم للأكل والركوب وشتى المنافع، ومنحكم الأولاد زينةً وقوةً لكم وقرة عين.

﴿١٣٤﴾ ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

ومنحكم البساتين الغناء، والحدائق الفيحاء بمختلف الأشجار وشتى الثمار، وفجَّر لكم عيونًا جارية عذبة للشرب والاغتسال والسقي.

﴿١٣٥﴾ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

إني أخشى عليكم إن كفرتم بالله عذابًا شديدًا لا يُطاق يوم العرض الأكبر؛ جزاءً لكم على كفركم وتكذيبكم.

﴿١٣٦﴾ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾

فقال قوم هود له: يستوي عندنا إن أنذرتنا وإن تركت ذلك، فلن نسمع لكلامك، ولن نصدق قولك، ولن نؤمن بما أرسلت به، فنطقك وصمتك سواء، وهذا غاية العناد والاستكبار.

﴿١٣٧﴾ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾

وقالوا: إن المعتقد الذي نعتقده هي العقيدة التي اعتقدها الآباء والأجداد، فنحن مقلدون لهم لا نترك دينهم.

﴿١٣٨﴾ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

ولن يعذبنا الله على فعلنا، ولن يقع ما حذرتنا منه من عقاب.

﴿١٣٩﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

فأصروا على تكذيب هود، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية مدمرة، وقد كان في إهلاكهم عبرة لمن اعتبر، وما أكثر من سمع أخبار عاد بمؤمنين برب العباد، وبمصدقين بيوم المعاد.

﴿١٤٠﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المدبر لهو العزيز حيث أهلك أعداءه، الرحيم حيث أكرم أولياءه.

﴿١٤١﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾

كذبت قبيلة ثمود النبي صالح - عليه السلام - حيث دعاهم إلى إخلاص العبادة لله، فكأنهم كذبوا جميع الرسل؛ لأن دعوة الرسل - عليهم السلام - واحدة، وهي الدعوة إلى التوحيد.

﴿١٤٢﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ دعاهم صالح إلى تقوى الله بالعمل بطاعته وترك معصيته وإفراده بالعبودية.

﴿١٤٣﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

وأخبرهم أن الله أرسله برسالة التوحيد، وأنه أمين في حمل الرسالة وفي تبليغها لا يزيد فيها ولا ينقص ولا يكتم.

﴿١٤٤﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فخافوا الله بفِعل ما يحب وتَرْك ما يكره، واتبعوني فيما دعوتكم إليه، واهتدوا بالدين الذي بُعثت به.

﴿١٤٥﴾ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وما طلبت منكم أجرة على دعوتي ولا جزاءً على رسالتي، فأجري وجزائي على من بيده ملكوت كل شيء، تبارك اسمه.

﴿١٤٦﴾ ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾

أتظنون أن الله سوف يغفل عنكم ويترككم بلا انتقام على ما فعلتم، ولا عذاب على ما أسأتم، وأنتم في النعيم آمنون وفي شهوات الدنيا راتعون؟!

﴿١٤٧﴾ ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

في حدائق غناء وبساتين فيحاء، في خضرة ونماء وثمار يانعة وماء.

﴿١٤٨﴾ ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾

وزروع كثيرة بهيجة المنظر، ونخل باسقة طيبة الطلع، يانعة الرطب ناضجة الثمرات.

﴿١٤٩﴾ ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾

وأنتم تبنون بيوتكم من الصخور فتنحتونها بمهارة وتبنونها بجدارة في أشر وبطر وكبر وعتو.

﴿١٥٠﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاحذروا عذاب الله بطاعته وإخلاص العبادة له، واقبلوا ما أرسلت به إليكم وتابعوني في دعوتي.

﴿١٥١﴾ ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

ولا تتبعوا المتجاوزين لحدود الله المتمردين عليها، الصادين عن منهج الله.

﴿١٥٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾

هؤلاء الفجار تمادوا في الإفساد في الأرض من القتل والبطش والظلم، فعملهم كله فاسد لا صلاح فيه.

﴿١٥٣﴾ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾

قالت ثمود لصالح - عليه السلام -: أنت مسحور مغلوب على عقلك، أثَّر السحر فيك وجعلك تتكلم بما لا يُعقل.

﴿١٥٤﴾ ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وأنت إنسان مثلنا لست ملكًا من السماء فلا يميزك علينا شيء، فنحن وإياك سواء في البشرية، فتعال بدليل ظاهر وبرهان باهر يثبت لنا أنك صادق، وأن الله أرسلك.

﴿١٥٥﴾ ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾

فقال لهم صالح - وقد أيده الله بآية عظيمة وهي الناقة التي أخرجها من الصخرة له -: هذه ناقة الله كما ترونها لها قسم من الماء في يوم معيَّن، ولكم قسم من الماء في يوم آخر محدد، لا تشرب في يومكم ولا تشربون في يومها.

﴿١٥٦﴾ ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾

واحذروا أن تنالوا الناقة بأذى كالضرب والقتل فيعجل الله لكم العقاب ويهلككم بالعذاب الذي لا يُطاق من شدته.

﴿١٥٧﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾

فقام شقي منهم فنحر الناقة، فلما رأوا الناقة معقورة تأسفوا على ما فعلوا وتحسروا على ما صنعوا، فما نفعهم الندم بعد زلة القدم.

﴿١٥٨﴾ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

فأهلكهم الله بالعذاب الشديد، وكان في إهلاك ثمود عظة للمتعظين من أهل الفِطَرِ القويمة والبصائر المستقيمة، وما أكثر من سمع هذه القصة العجيبة بمصدق بها.

﴿١٥٩﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المتصرف المدبر لعزيز قهر من حاربه وغلب من غالبه، وهو رحيم لطف بمن أطاعه وتولى من تولاه.

﴿١٦٠﴾ ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

كذبت قوم لوط برسالة لوط وكفروا بدعوته، فكأنهم لما كذبوه كذبوا جميع الرسل؛ لأنهم كلهم يدعون إلى توحيد الله وحده لا شريك له.

﴿١٦١﴾ ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال لهم أخوهم لوط في النسب: ألا تحذرون عقاب الله بتقواه وتعملون ما أمر به وتجتنبون ما نهى عنه وتخلصون له الطاعة.

﴿١٦٢﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾

إن الله أرسلني إليكم وأنا أمين على حمل الرسالة وتبليغها، لا أزيدُ فيها شيئًا ولا أنقص منها شيئًا ولا أكتمُ شيئًا.

﴿١٦٣﴾ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاعملوا لما يحبه الله واجتنبوا ما يبغضه الله، واتبعوني فيما أُرسلتُ به بإفراد الله بالعبودية وعدم الإشراك به.

﴿١٦٤﴾ ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وما أطلبُ منكم على دعوتي أجرةً ولا أرجو منكم جزاءً على تبليغ الرسالة، فجزائي وثوابي على خالق الكون الذي بيده خزائن السموات والأرض.

﴿١٦٥﴾ ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أتعملون الفاحشة في الذكور من الناس فتخالفون الفطرة والعقل والنقل؟!!

﴿١٦٦﴾ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾

وتتركون الزواج بالنساء اللواتي خلقهن الله للاستمتاع الحلال والذرية الطيبة والسكنى، إنكم قوم تجاوزتم الحد في المعصية وتركتم الحلال إلى الحرام، فاستوجبتم غضب الله.

﴿١٦٧﴾ ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾

فردَّ قوم لوط عليه قائلين: يا لوط، إذا لم تترك زجرنا عما نفعل بالذكور والإنكار علينا فسوف نطردك من ديارنا وننفيك من بيننا.

﴿١٦٨﴾ ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾

فردَّ عليهم لوط قائلاً: إني أشهد الله على بغضي عملكم القبيح أشد البغض، وأبرأُ إلى الله تعالى من فحش عملكم.

﴿١٦٩﴾ ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

فلما أصرَّ قوم لوط على فعلهم دعا لوطًا فقال: ربِّ خلصني وخلِّص أهلي من هذا العمل القبيح الذي يعمله قومي، وأنقذني من عقوبة هذا الفعل المشين.

﴿١٧٠﴾ ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾

ونَجَّى الله لوطًا وأهله الذين آمنوا بالله، واتبعوا لوطًا وسلمهم من العذاب.

﴿١٧١﴾ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

لكن الله أهلك من أهله امرأته العجوز التي كفرت وأيّدت قومها في هذه المعصية، فكانت مع الباقين في العقاب المستحقين للعذاب.

﴿١٧٢﴾ ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾

ثم أهلك الله سواهم من قوم لوط، فاستأصلهم بالعذاب وعمهم بالهلاك.

﴿١٧٣﴾ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

وأنزل الله على قوم لوط حجارة من السماء كالمطر من كثرتها وتتابعها، فقبح هذا المطر من مطر حمل العذاب ونزل بالدمار على قومٍ كفار عصوا الواحد القهار.

﴿١٧٤﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

إن في عذاب قوم لوط لعظةً لمن أتى بعدهم وعبرةً لمن بلغته أخبارهم، وما أكثر من بلغته هذه القصة بمصدقٍ ولا مهتدٍ.

﴿١٧٥﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المدبر المتصرف لهو العزيز الذي غلب فقهر، وحكم فقدر، وهو الرحيم الذي لطف بمن تاب وغفر لمن أناب.

﴿١٧٦﴾ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

كذب أصحاب الشجرة العظيمة رسولهم شعيبًا - عليه السلام - وردوا دعوته، فكأنهم كذبوا كل الرسل؛ لأن الرسل بُعثوا بإفراد الله بالعبادة وعدم الإشراك به.

﴿١٧٧﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال شعيب لقومه: ألا تحذرون عذاب الله وتعملون بطاعته وتتركون معصيته؟

﴿١٧٨﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

إن الله أرسلني إليكم بالتوحيد، وأنا مؤتمن على الرسالة أبلغها كما سمعت، وأؤديها كما أُمرت، لا أزيدُ ولا أنقص.

﴿١٧٩﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاعملوا بطاعة الله واتركوا مخالفة أمره، واستجيبوا لدعوته، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، لتنالوا من الله الهداية والولاية.

﴿١٨٠﴾ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وما أطلبُ منكم أجرةً على أتعاب دعوتي ولا جزاءً على أعباء رسالتي، فثوابي على مالك أمري الذي بيده ملكوت كل شيء.

﴿١٨١﴾ ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾

أتموا الكيل للناس إذا بايعتموهم ولا تنقصوا من الكيل شيئًا، فإن من خاف الله اتقاه في عباده بإيفائهم حقوقهم وعدم ظلمهم.

﴿١٨٢﴾ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾

وزنوا إذا بايعتم الناس بالوزن العدل، فلا تنقصوا حقوق الناس إذا وزنتم لهم.

﴿١٨٣﴾ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

ولا تنقصوا الناس وتغشوهم في الكيل أو الوزن أو العدد أو النقد أو غير ذلك، ولا تفسدوا في الأرض بالكفر والقتل والنهب والسلب والظلم والفواحش والمنكرات والعقوق وقطيعة الرحم وغيرها.

﴿١٨٤﴾ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾

واحذروا عذاب الله وذلك بطاعته وترك معصيته، فهو الذي خلقكم أنتم والأقوام المتقدمين من القرون السابقة.

﴿١٨٥﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾

فردَّ قوم شعيب عليه فقالوا: أنت رجل مسحور أصابك سحر فأذهب عقلك، فصرت تتكلم كلامًا لا يُعقل لا سداد فيه ولا رشد.

﴿١٨٦﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

وما أنت إلا إنسان مثلنا ولست ملكًا من ملائكة السماء، فما ميزتك علينا؟ ونحن نحسبك كاذبًا على الله لم يرسلك إلينا برسالة، وإنما ادعيت ذلك من عندك.

﴿١٨٧﴾ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

فإن كنت يا شعيب صادقًا أن الله أرسلك فاطلب إلى ربك أن يسقط علينا قطعًا من الغمام الأسود يهلكنا، قالوا ذلك عنادًا واستبعادًا.

﴿١٨٨﴾ ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

فردَّ عليهم شعيب قائلاً: الله مطلع على أعمالكم قد علم ما فعلتموه من الكفر والتكذيب، وهو يعلم متى ينزل عليكم العذاب وإنما أنا مبلغ لرسالته.

﴿١٨٩﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

فثبتوا على كفرهم وإصرارهم، فسلَّط الله عليهم الحرَّ الشديد الذي مزَّق أجسادهم، وأخذوا يفرون منه إلى كل ظل يستظلون به، فرأوا سحابة فاستظلوا بها، فلما اجتمعوا تحتها اشتعلت عليهم نارًا فأحرقتهم جميعًا، فكان ذلك اليوم من أشد الأيام هولاً ونكالاً وهلاكًا.

﴿١٩٠﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

إن في العذاب الذي نزل بقوم شعيب لعظةً لمن كان له بصيرة، وما أكثر من سمع به بمصدقٍ ولا مؤمن.

﴿١٩١﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك الغني القوي لهو العزيز في انتقامه من أعدائه وشدة بطشه بمن حاربه، وهو الرحيم لمن أطاعه اللطيف بمن تقرب إليه.

﴿١٩٢﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وإن القرآن العظيم الذي أنزله الله على النبي الكريم وحيٌ تكلم به الرحمن الرحيم، خالق الكون وموجد السموات والأرض.

﴿١٩٣﴾ ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾

نزل بالقرآن من عند الرحمن روح القدس جبريل الأمين فيما حمله من الوحي وبلغه إلى النبي ﷺ.

﴿١٩٤﴾ ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾

فأوحاه جبريل على قلب الرسول ﷺ فحفظه وفهمه، وأتقنه وبلّغه، وخوَّف به من عذاب الله، وأنذر به الإنس والجن.

﴿١٩٥﴾ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

أتى جبريل بالقرآن إلى الرسول ﷺ باللغة العربية الفصحى جميلة اللفظ، مشرقة المعنى واضحة البيان، يفهمه الحاضر والبادي والقارئ والأمي.

﴿١٩٦﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾

وإن هذا القرآن العظيم ثابتٌ ومذكور في كتب الرسل السابقين - عليهم السلام - قد أخبروا به وبشروا به أقوامهم.

﴿١٩٧﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

أولم يكف الكفار برهانًا على أن القرآن حق من عند الله وأن الرسول مرسل من الله، عِلْمُ علماء اليهود بصدق ذلك وثبوته، وكذلك شهادة من آمن منهم كعبد الله بن سلام.

﴿١٩٨﴾ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾

ولو أنزل الله القرآن على بعض العجم الذين لا يجيدون لغة العرب قطعًا لاحتجاج الكفار بكون الرسول عربيًا.

﴿١٩٩﴾ ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

فقرأ هذا الأعجمي القرآن على الكفار قراءة عربية فصيحة لما آمنوا به أيضًا وبحثوا عن حجة أخرى لتكذيبه.

﴿٢٠٠﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

كذلك أدخل الله في قلوب المجرمين التكذيب بالقرآن فصار راسخًا في قلوبهم بسبب شركهم وعتوهم.

﴿٢٠١﴾ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

لن يصدقوا بالقرآن حتى يروا العذاب الذي وعدهم به الرسول ﷺ رأي العين.

﴿٢٠٢﴾ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

فينـزل الله العذاب على الكفار فجأة دون سابق إنذار فلا يعلمون بمجيئه حتى يقع.

﴿٢٠٣﴾ ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾

فيقول الكفار عندما يبصرون العذاب: هل لنا مهلة لنراجع أنفسنا ونؤمن بربنا، فلو أُخِّرنا قليلاً لتُبْنَا وأَنَبْنا.

﴿٢٠٤﴾ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾

أغرَّ الكفار إمهال الواحد القهار؟، فهم يستعجلون نزول العذاب من الله استبطاءً له وتكذيبًا به.

﴿٢٠٥﴾ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾

أفرأيت - أيها النبي - إن أمهلنا الكفار سنين طويلة يتمتعون بحياتهم وبشهواتهم؟

﴿٢٠٦﴾ ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

وبعد تمتعهم بالحياة يحل بهم العذاب ويقع بهم العقاب الذي وعدهم به الرسول ﷺ لتكذيبهم برسالته.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾

ما أغنى عن الكفار تمتعهم بطول الأعمار، وعمار الديار، وحسن المعيشة إذا لم يؤمنوا بالله؟ فسوف يعذبهم الله في العاجل أو الآجل.

﴿٢٠٨﴾ ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾

وما عذَّب الله قرية من قرى الأرض إلا بعدما يقيم على أهلها الحجة بإرسال رسول إليهم ينذرهم عذاب الله إن كفروا.

﴿٢٠٩﴾ ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

وهذه النذارة تذكير ونصح لهم ليؤمنوا بالله قبل أن يحل بهم العذاب، والله لا يظلمهم بإهلاكهم قبل أن يبعث فيهم رسولاً.

﴿٢١٠﴾ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾

وما تنـزَّلت الشياطين بالقرآن على سيد ولد عدنان، بل هو كلام الرحمن.

﴿٢١١﴾ ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

ولا يصح للشياطين أن تفعل ذلك ولا يستطيعون فعله، فهؤلاء لا يحل لهم فعله ولا يقدرون عليه.

﴿٢١٢﴾ ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

إن الشياطين عن استماع القرآن ممنوعون مصروفون بالشهب المحرقة.

﴿٢١٣﴾ ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾

فلا تشرك بالله شيئًا ولا تدعُ غيره، فإن فعلت ذلك عذّبك الله، ولا يمنعك من عذابه أحد، فكيف بغيره ﷺ لو فعل ذلك؟!

﴿٢١٤﴾ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

وحذِّر - أيها النبي - الخاصة من أهلك، وابدأ بالأقرب فالأقرب فهم أولى بالنصح من غيرهم.

﴿٢١٥﴾ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وتواضع وألن جانبك وأحسن خطابك للذين صدقوا دعوتك واتبعوا رسالتك، فباللين تكسب قلوبهم، وبالرفق تنال مودتهم.

﴿٢١٦﴾ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فإن خالفك مخالف ولم يهتد بهداك ولم يأتمر بأمرك فتبرأ من أعماله من كفر ومعاصٍ، فليس عليك تبعة من معصية من عصى.

﴿٢١٧﴾ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾

واعتمد في كل شأنك وفوِّض أمرك إلى العزيز الذي عزَّ بجبروته، وقهر من عانده، والذي غلب بحكمه فخذل من ضادَّه، الرحيم الذي لا يخذل من والاه، ولا ينصر من عاداه.

﴿٢١٨﴾ ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

وهو- سبحانه - الذي يراك - أيها النبي - وأنت تقوم للصلاة في ظلام الليل وحدك حيث لا يراك غيره.

﴿٢١٩﴾ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾

ويرى - سبحانه - تقلُّبَكَ - أيها النبي - في حالة صلاتك مع المصلين، مرة وأنت قائم أو راكع أو ساجد أو جالس.

﴿٢٢٠﴾ ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

إن الله - سبحانه - يسمع الأقوال، ويعلم الأحوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية، فالسرُّ عنده علانية.

﴿٢٢١﴾ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾

هل أخبركم - أيها البشر - بمن تأتيه الشياطين فتوحي إليه الزور والبهتان والدجل والكذب؟

﴿٢٢٢﴾ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

تنزل الشياطين على الكذّاب كثير الآثام، المرتكب للفواحش والمنكرات، ولا تأتي المؤمن الصادق.

﴿٢٢٣﴾ ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾

يسترق الشياطين السمع فيسمعون الكلمة الواحدة من الملأ الأعلى فيخبرون بها الكهان والعرافين وغالبهم كذّاب، يصدق في كلمة ويزيد عليها مائة كذبة!!

﴿٢٢٤﴾ ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾

والشعراء ينظمون شعرهم في الغالب على الباطل والكذب والمبالغات والخيالات البعيدة عن الحقيقة والواقع، ويقتدي بهم كل زائغ غاوٍ من أمثالهم.

﴿٢٢٥﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾

أما تعلم أن هؤلاء الشعراء يخوضون في كل فنٍ كالهائم على وجهه، فيكذبون وينمِّقون المبالغات ويدبِّجون العبارات ويجرحون الأحساب، ويطعنون في الأنساب، ويقذفون المحصنات، ويهجون أهل المروءات.

﴿٢٢٦﴾ ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾

وهؤلاء الشعراء يقولون ما لا يفعلون، فيمتدحون بأعمال ما عملوها، ويفتخرون بصفات ليست فيهم، فهم يسبون الأخيار، ويمدحون الأشرار.

﴿٢٢٧﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

ويُستثنى ممن ذمَّ الله من الشعراء شعراء الدعوة والرسالة من أهل الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله والذَّب عن دين الله، وهجاء أعداء الله، وقول الحكمة، والموعظة الحسنة، والحث على الفضائل، والنهي عن الرذائل، والتنويه بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى معالي الأمور، مع كثرة ذكر الله، وتلاوة كتابه وتعلم العلم النافع، وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والذنوب ومحاربة الملة وظلم الناس والتعدي على أعراضهم واتهامهم بالباطل وقذفهم بالزور، أي معادٍ يعودون إليه من الذل والهوان، والهلاك والخسران إذا بُعثِرَ ما في القبور، وحصِّلَ ما في الصدور، وانكشف المستور عند من يعلم ما في الصدور، فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته، وأن يسبِلَ علينا عافيته، وأن يسدل علينا ستره.

مكية

سورة النمل

ترتيبها ٢٧ | آياتها ٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، ولها معانٍ ومقاصد نَكِلُ علمها إلى الله.

وهذه آيات القرآن واضحة المعنى فصيحة المبنى، مشرقة في دلالتها قاطعة في حجتها، حوت أصول العلوم والأحكام والشرائع والأخلاق والآداب.

﴿٢﴾ ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وهي تهدي للحق وتدل على طريق الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، وتبشر من آمن وعمل صالحًا بالسعادة في الدنيا والفوز بالنعيم المقيم بجنات النعيم.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

هؤلاء المؤمنون يؤدون الصلاة المفروضة على أكمل وجه، ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها طيبةً بها نفوسهم، وهم موقنون بقيام الساعة ويوم الحساب والجزاء، حيث يثيب الله أهل الطاعة ويعاقب أهل المعصية.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾

إن الذين كذبوا بالآخرة وأنكروا قيام الساعة ولم يعدوا لها عملاً صالحًا حسَّن الله لهم أعمالهم القبيحة فرأوها جميلة، فهم يزدادون منها؛ ليعظم إثمهم عند الله، فهم مترددون حائرون.

﴿٥﴾ ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

هؤلاء لهم أشد العذاب في الدنيا من القتل والأسر والخزي والذل والعار، ولهم في الآخرة عذاب النار وغضب الجبار.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾

وإنك - أيها النبي - لتتلقَّى آيات القرآن من عند الله، فهو وحي موحى إليك من ربك تكلم به - سبحانه -، وهو الحكيم في خلقه وصنعه، وفي حكمه وشرعه الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا تخفى عليه خافية.

﴿٧﴾ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

واذكر خبر موسى - عليه السلام - يوم قال لأهله وهو في طريقه من مدين إلى مصر: إني شاهدتُ نارًا على بُعد أريدُ أن أذهب إليها لآتي بخبر يرشدنا إلى طريقنا، أو آتي بشعلة من النار نوقد عليها ما ندفع به البرد عنا.

﴿٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فلما وصل موسى إلى النار ناداه الله - سبحانه - وأخبره أن هذا المكان مبارك مطهر حيث جعله محلاً كلّم الله فيه موسى وأرسله إلى فرعون، وقد بارك الله من في النار ومن حولها من الملائكة، والله منزَّه سبحانه عما لا يليق بجلاله من العيب والنقص ومما نسبه إليه بعض خلقه.

﴿٩﴾ ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ونادى الله موسى وأخبره أنه - سبحانه - المستحق للألوهية وحده لا شريك له، العزيز الذي غلب أعداءه ونصر أولياءه، الحكيم الذي أحسن التدبير وأتقن التقدير.

﴿١٠﴾ ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

وأمر الله موسى أن يُلْقي عصاه فألقاها فتحولت حية بإذن الله، فلما رآها موسى تضطرب أمامه فرَّ خائفًا وتركها ولم يعد إليها، فناداه الله بقوله له: لا تخف فإن الرسل ليس عليهم خوف؛ لكرامتهم على الله ومنزلتهم عنده.

﴿١١﴾ ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لكن من أذنب وظلم نفسه بالخطايا ثم عاد إلى ربه وتاب إلى مولاه فإن الله يغفر له ما سلف منه ويعفو عما أخطأ فيه؛ لأن الله كثير الغفران، واسع الرحمة.

﴿١٢﴾ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

وأمر الله موسى أن يدخل يده في جيبه تحت يده من جهة إبطه فخرجت بيضاء شديدة البياض من غير برص، وهي إحدى تسع معجزات باهرات أيد الله بها موسى أمام فرعون وقومه؛ لأنهم خرجوا عن طاعة الله وتعدوا حدوده.

﴿١٣﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

فلما أتى موسى بهذه المعجزات إلى فرعون وهي معجزات واضحة الدلالة، بيِّنة الحجة يبصر بها من رآها الحق، ردَّ فرعون وقومه بأن هذه المعجزات سحر واضح لا يمتري فيه أحد، وهذا منهم كذب وزور.

﴿١٤﴾ ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

وكذب فرعون وقومه بالمعجزات التي أتى بها موسى، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنها من عند الله وأنها حق، لكن حملهم على التكذيب العدوان وإنكار الدليل والتكبر على عباد الله مع البطر والأشر، فانظر كيف كان مصيرهم بعدما أفسدوا في الأرض بالكفر والقتل والظلم، لقد أغرقهم الله في البحر ولهم في الآخرة عذاب النار.

﴿١٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولقد تفضل الله على داود وسليمان - عليهما السلام - بعلم نافع من الوحي والحكمة والفهم، فعملا بعلمهما وعلماه الناس، وشكرا الله على تفضيله إياهما على الكثير من الناس، وفي هذا برهان على فضل العلم وشرفه وعلو منزلة حملته.

﴿١٦﴾ ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وورث سليمان أباه داود في الرسالة والحكمة والملك، فصار خليفة من بعده، وقال سليمان للناس شاكرًا نعم ربه: أيها الناس، إن الله علَّمنا وفهمنا كلام الطير، وتفضل علينا بكل شيء نحتاج إليه في إقامة الملك وقوة الدولة، وهذه المواهب التي منحنا الله إياها هي من الفضل والخير الذي رفعنا الله به وخصَّنا به على غيرنا من البشر.

﴿١٧﴾ ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

واجتمع جنود سليمان من سائر المخلوقات جنًا وإنسًا وطيرًا في يوم احتفال لهم، وكانوا مع كثرتهم وتنوعهم على نظام دقيق كلٌ عرف مكانه ومهمته.

﴿١٨﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

حتى إذا وصل سليمان وجنوده إلى واد النمل قالت نملة تحذر سائر النمل: يا أيها النمل، ادخلوا مساكنكم خوفًا من سليمان وجنوده إذا مرّوا عليكم أن يهلكوكم بأقدامهم، إنهم لا يقصدون ذلك، لكنهم قد لا يعلمون بوجودكم.

﴿١٩﴾ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

وضحك سليمان من كلام النملة كيف عرّفها الله بسليمان وجنوده وفهمها وأرشدها إلى تحذير النمل، وعلم نعمة الله عليه وسأل ربه أن يعينه على شكره - سبحانه - على ما أنعم به عليه وعلى والديه من الهداية والإيمان والحكمة، وسأل ربه أن يوفِّقه لعملٍ صالح يرضى الله عنه، وأن يدخله برحمة منه في جنات النعيم مع الأبرار في دار القرار بجوار العزيز الغفار.

﴿٢٠﴾ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾

وتفقد سليمان الطيور التي سخرها الله له وما غاب منها وما حضر، فلم ير الهدهد في مكانه المعد له، فقال سليمان منكرًا غياب الهدهد: ما لي لا أرى الهدهد حاضرًا هل هو مختبئ أم غائب؟

﴿٢١﴾ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

فلما تيقن سليمان غياب الهدهد توعده بالعذاب الشديد تنكيلاً به وتأديبًا له أو الذبح عقوبةً له على تأخره وإهماله مهمته، إلا إذا جاء بعذر قائم يعذره به سليمان عن غيابه.

﴿٢٢﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

فبقي الهدهد وقتًا غير طويل ثم جاء، فلامه سليمان على الغياب، فأجاب الهدهد: لقد علمت بأمرٍ لا تعلمه وأدركته تمام الإدراك، وقد أتيتُ إليك من سبأ في أرض اليمن بخبر عظيم، وأنا متيقن مما أقول صادق فيما أنقل.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

يقول الهدهد: إني وجدت في اليمن امرأة تحكم أهل سبأ وأعطاها الله كل شيء مما يقوم به الملك، ولها سرير كبير عظيم القدر تجلس عليه في وقت الحكم.

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

وجدتُ هذه الملكة هي ورعيتها يعبدون الشمس ولا يعبدون الله - تعالى - الذي خلقهم ورزقهم، والذي خدعهم بذلك هو الشيطان؛ حيث حسَّن لهم الشرك بالله والمعاصي، فصرفهم عن التوحيد وعبادة الله - عز وجل -، فلم يُوفَّقوا للإيمان بالله وإخلاص الطاعة له وإفراده بالعبودية، فكأن الهدهد أنكر أمرين على أهل سبأ: الشرك بالله، وكون المرأة تحكمهم.

﴿٢٥﴾ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

صرفهم الشيطان عن عبادة الرحمن لئلا يسجدوا للواحد الديان الذي يطلع على كل مخبوء مستور في السموات والأرض من سر وكنز ونبات ومطر وغير ذلك، ويعلم ما أسرَّ العباد وما جهروا به وما أخفوه وما أظهروه.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

والله وحده لا إله إلا هو لا شريك له، لا معبود بحقٍ سواه، ولا إله يستحق العبودية غيره، وهو رب العرش العظيم الذي هو أعظم وأكبر من كل عرش سواه من عروش الملوك.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

فقال سليمان للهدهد: سنمهلك ونتثبت ممّا جئتنا به حتى يظهر لنا الأمر أصدقت فيما قلت أم كذبت فيما نقلت، وقدم الصدق تفاؤلاً.

﴿٢٨﴾ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

اذهب - أيها الهدهد - بكتابي هذا إلى بلقيس ملكة سبأ وقومها وسلِّم الكتاب إليهم، ثم انصرف عنهم وكن قريبًا منهم؛ لتسمع كلامهم وتنقل أخبارهم وما يدور بينهم.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ ٢٩

فسار الهدهد برسالة سليمان وألقاها على الملكة، فجمعت أعيان الدولة وسادة قومها وأنصتوا لها وهي تقول: لقد جاءتني رسالة جليلة القدر نفيسة المضمون من ملك عظيم الشأن شديد البأس.

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ٣٠

وقرأت عليهم نصَّ الرسالة وفيها: إن الكتاب من سليمان مفتتحة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ٣١

ألا تتكبروا عليَّ، وتعالوا خاضعين بالعبودية لله مقرين بالوحدانية له.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ ٣٢

ثم قالت بلقيس لقومها: أشيروا عليَّ - أيها الأعيان - في هذا الشأن وفي رسالة سليمان، فأنا دائمًا أستشيركم ولا أبرم أمرًا دونكم.

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ٣٣

فردَّ الأعيان على الملكة بلقيس قائلين: أنت تعرفين أنا أصحاب قوة في العدد والعتاد، وأصحاب شجاعة وإقدام في المعارك وصبرٍ على اللقاء، والأمر يعود إليك فلك الرأي فتأملي الأصلح والأصوب ونحن سامعون لقولك مطيعون لأمرك.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ٣٤

قالت بحصافة وحنكة وتجربة محذرةً من مغبة محاربة الملوك: إن من عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة بالقوة والقهر أذلوا أشرافها، وقتلوا رجالها، وخربوا بيوتها، وأفسدوا فيها بالقتل والأسر والظلم، وهذه عادتهم في كل زمان ومكان.

﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ٣٥

وسوف أبعث لسليمان وقومه هدية تستجلب ودهم وتدفع الأذى عنا، وهي هدية نفيسة وثمينة، وسوف أنتظر عودة الرسل من عند سليمان لأرى كيف قابلهم وكيف أخذ الهدية.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ٣٦

فلما جاء الوفد من عند الملكة بلقيس إلى سليمان بالهدية الثمينة، أنكر سليمان ذلك؛ لأن الله أعطاه من أسباب الدنيا ومن وسائل الملك ما لم يعطه أحدًا من الناس، وقال: كيف تعطوني شيئًا من عرض الدنيا الزائل والله قد أعطاني النبوة والحكمة والملك والعلم والفهم والأموال والجاه وهي أعظم مما عندكم وأفضل، بل أنتم أحق أن تفرحوا بما يُهدى إليكم من أسباب الدنيا؛ لأنكم تحبون أموالها وجاهها والفخر بها والمكاثرة فيها.

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ ٣٧

وقال سليمان للرسول الذي وفد من عند الملكة سبأ: عد إلى الملكة وقومها وأُقسم بالله لنغزونهم بجيش لا يستطيعون مقاومته ولا مواجهته ولنخرجنهم من ديارهم أذلاء صغراء مهانين إن لم يُسلِموا ويوحدوا الله ويفردوه بالعبودية ويتركوا الشرك به سبحانه.

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ٣٨

ثم قال سليمان لمن حوله من جنده: من منكم يذهب فيأتيني بسرير ملكة سبأ قبل أن تأتي هي وقومها خاضعين مستسلمين؟

﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾

قال أحد الجن المردة الأقوياء شديد البأس: أنا سوف أحضر لك سريرها قبل أن تنتهي من مجلسك هذا، فإني قوي على حمله، أمين على ما فيه، أحضره على حاله بلا نقص ولا تبديل ولا تأخير.

﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

قال الذي عنده علم من الكتاب -وهو شيء من علم النبوة الذي أُوحي إلى سليمان-: أنا سوف أحضر لك السرير قبل أن تغمض أجفانك على عيونك إذا سرَّحت النظر إلى شيء، فأمره سليمان فدعا الله فَحَضَّر السرير بإذن الله، فلما أبصر سليمان السرير العظيم أمامه في لمحة الطرف قال: هذا من فضل ربي الخالق المالك المدبر المتصرف، وهو امتحان لي هل أشكر نعمه وأخلص الطاعة له أم أكفر نعمه وأترك شكره، ومن شكر الله على ما أنعم فإن فائدة شكره تعود إليه بزيادة النعيم ودوام الخير، ومن أنكر نعم الله وترك شكره فالله غني عنه وعن شكره، كريم شمل بفضله الشاكر والكافر والموحد والجاحد، وسوف يحاسب الجميع ويجزي كلاً بعمله.

﴿٤١﴾ ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾

قال سليمان لجنده: غيروا في معالم سرير الملكة لنشاهد مدى معرفتها وذكائها هل تهتدي لمعرفته أم تنكره؟

﴿٤٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

فلما جاءت بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان وحضرت مع أعيان قومها، سألها سليمان أهذا سريرك الذي تجلسين عليه للحكم؟ قالت: إنه يشبه سريري، وهذا من ذكائها فلم تجزم بالإقرار أو الإنكار، بل جعلت الأمر محتملاً، فعلم سليمان أنها سُددت في الجواب وتيقنت من صدق سليمان في نبوته، وقال: الله أعطانا العلم به - سبحانه - وبقدرته من قبل أن يعطيها، ونحن خاضعون له - سبحانه - مستسلمون لأمره على دين الإسلام.

﴿٤٣﴾ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

ومنعها من توحيد الله وإخلاص العبادة له ما كانت عليه من شرك وعبادة للشمس، أنها عاشت بين قوم كفار فقلدت الآباء والأجداد في الشرك، ومع أنها حصيفة ذكية تميزُ بين الخطأ والصواب، لكن التقليد الأعمى والعادات الباطلة تطمس البصيرة.

﴿٤٤﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قيل لبلقيس: ادخلي قصر سليمان، وكان بهو القصر من زجاج أملس صاف وتحته ماء، فلما رأت هذا المنظر ظنت أن المكان ماءٌ تتردد أمواجه وليس فوقه زجاج وخافت أن تبتل بالماء، ورفعت الثياب عن ساقيها، لتعبر الماء، فقال لها سليمان: هذا البهو سطح أملس من زجاج شفاف صاف تحته ماء ولن يصل إليك الماء، فدُهشتْ من عظمة ما أوتي سليمان من أسباب الملك وأبَّهة السلطان، وقالت: ربي إني ظلمتُ نفسي بالشرك والآن أعلنتُ لك التوحيد وانقدتُ لأمرك باتباع سليمان النبي - عليه السلام -؛ لأدخل معه في دين ملك الملوك رب العالمين أجمعين وإله الأولين والآخرين.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

ولقد أرسل الله إلى قوم ثمود أخاهم صالحًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له وعدم الإشراك به، فلما جاءهم صالح بالتوحيد انقسم قومه إلى طائفتين: طائفة مؤمنة، وطائفة كافرة، وكل يخاصم الآخر على دينه الذي هو عليه.

﴿٤٦﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾

قال صالح لمن كفر به: لماذا تبادرون إلى المعاصي والإقدام على الذنوب التي تورث لكم عقاب الله وغضبه وتؤجلون الإيمان بالله وعمل الصالحات التي تورث لكم رضوان الله وثوابه؟ لماذا لا تسألون الله المغفرة ابتداءً وتستغفرونه من الذنوب؛ لعل الله أن يرحمكم بغفران الخطايا والعفو عما كان منكم؟

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴾

وقال قوم صالح له: إننا متشائمون منك وممن اتبعك على دينك، فردَّ عليهم صالح: إنما وقع بكم من خير أو شر فالله قدره وقضاه، ولكن الله يمتحنكم بالعسر واليسر والشدة والرخاء.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾

وكان في مدينة صالح - وهي الحجر شمال غرب جزيرة العرب - تسعة رجال أشرار يفسدون في الأرض بظلم الناس وعمل السيئات وليس فيهم صلاح أبدًا.

﴿٤٩﴾ ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

فتشاور هؤلاء التسعة فيما بينهم، وحلف بعضهم لبعض: لنفاجئن صالحًا وأهله بالقتل غيلة في الليل، ثم نقول لولي الدم من أسرته: ما حضرنا قتلهم وقد كنا غائبين، ونحن صادقون في قولنا.

﴿٥٠﴾ ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وحبكوا حيلة لقتل صالح وأهله خفية في ظلام الليل، فحمى الله نبيه صالحًا وأهله، وفجأ الله هؤلاء الأشرار بالعقوبة الماحقة في غفلة منهم، وهم كانوا لا يتوقعون نزول عذاب الله بهم.

﴿٥١﴾ ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

فاعتبروا بما حصل لهؤلاء كيف كانت نتيجة عملهم السيء، كيف أبادهم الله وأهلكهم كافة ولم يبق منهم أحدًا.

﴿٥٢﴾ ﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

فهذه دُوْرهم أصبحت خرابًا خالية ليس فيها أنيس بعدما أهلكهم الله بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والإفساد في الأرض ومحاربة صالح، إن فيما فعل الله بهم من الإبادة والإهلاك لعبرةً عظيمةً لمن عنده علم نافع يستفيد من العبر، وهذه سنة الله فيمن كفر به وحارب رسله عليهم السلام.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

وأنجى الله من العذاب الذي نزل بقوم ثمود نبيهم صالحًا وأهله الذين كانوا يعملون بطاعة الله ويتركون معاصيه.

﴿٥٤﴾ ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾

واذكر النبي لوطًا إذ أنكر على قومه الفعلة الشنيعة القبيحة وهي إتيان الرجال عِوضًا من النساء، وهم يتنكرون لأمر الله لهم بالصلاح ونهيه لهم عن الفساد.

﴿٥٥﴾ ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾

فعصوا أمر الله وارتكبوا نهيه، وفعلوا فعلاً قبيحًا لم يسبق لأمة من الأمم أن فعلت هذا الفعل، وهي إتيان الرجال دون النساء.

﴿٥٦﴾ ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

فما وجد قوم لوط جوابًا على إنكار لوط لهم إلا أن قالوا فيما بينهم: أخْرِجوا لوطًا وأهله من قريتكم؛ لأنهم طاهرون متطهرون من هذه الفواحش، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً.

٥٧ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

فسلّم الله لوطًا وأهله من العذاب المعد لقومه الكفار، لكن امرأته الكافرة بقيت مع الهالكين فنالها العذاب؛ لأنها كانت تعين قومها على فعل الفاحشة.

٥٨ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

وأرسل الله من السماء حجارةً من طين رجمهم بها فمزقهم وأبادهم، فقبح ذاك المطر من مطر، فقد أهلك الله به قومًا قد أنذرهم نبيهم عذاب الله.

٥٩ ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قل - أيها النبي -: الثناء كله والشكر أوله وآخره لله الواحد الأحد، وسلام من الله وأمان من كل الآفات والمخاوف لعباده الذين اختارهم لإبلاغ رسالته، ثم اسأل الكفار: هل الله الخالق الرازق الذي يجلب الخير ويدفع الشر خير لكم أم آلهتكم التي لا تخلق ولا ترزق ولا تجلب خيرًا ولا تدفع عن أنفسها ضرًا.

٦٠ ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

واسأل الكفار: من الذي خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبت به حدائق جميلة ذات منظر بهي حسن، وأنتم لا تستطيعون إنبات شجرها لولا أن الله أنبتها وحده - سبحانه -، هل هناك إله آخر مع الله يفعل هذه الأفعال من الخلق والرزق وإنزال الماء وإخراج النبات حتى يستحق شيئًا من العبادة؟ بل إن الكفار أناس ينحرفون عن الهداية وتوحيد الله إلى الضلالة والإشراك به، فيسوون بين الله وبين من لا ينفع ولا يضر.

٦١ ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هل عبادة الآلهة التي لا تجلب خيرًا ولا تدفع شرًا أفضل أم عبادة من سوّى الأرض حتى جعلها مهدًا وفراشًا ومستقرًا، وفجر وسطها أنهارًا وثبتها بالجبال الرواسي، وجعل حاجزًا بين البحرين العذب والمالح فلا يختلط هذا بهذا، هل يستحق العبادة أحدٌ فعل فعله - سبحانه - حتى يُشرك به معه؟ بل أكثر الكفار لا يقدّرون الله حق قدره، ولا يعلمون ما له من عظمة؛ ولذلك قلّدوا آباءهم في الإشراك بالله سبحانه.

٦٢ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

أعبادة آلهتكم المزعومة أفضل أم عبادة من يكشف الكرب عمن سأله، ويزيل البلاء عمن وقع به، ويفرج الشدة عمن حلَّت به، ويجعلكم تخلفون من تقدمكم في عمارة الأرض، هل هناك إله آخر يسدي إليكم النعم ويصرف عنكم النقم غير الله فتشركوا به مع الله؟ ما أقل تذكركم واعتباركم، فلهذا كفرتم بربكم فجهلكم حملكم على سوء فعلكم.

٦٣ ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

أعبادة آلهتكم المزعومة أفضل أم الذي يدلكم إذا سرتم في ظلمات البر والبحر وضللتم الطريق، فهو وحده الذي يرشدكم إلى سبيل النجاة، وهو - سبحانه - الذي يرسل الرياح تبشر برحمته وبقدوم الغيث على عباده فيحيي به الأرض بعد موتها، هل هناك إله غير الله يفعل فعله فيُشرك به معه في العبودية، تنزَّه الله عن فعل المشركين، وتقدَّس أن يكون معه إله آخر، فهو الله الذي لا إله إلا هو لا رب سواه ولا معبود بحق غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

واسأل الكفار: من الذي ابتدأ إنشاء الخلق دون مثال سابق ثم يفنيه متى أراد، ثم يعيده بعد الفناء، ومن الذي يرزق الخليقة من السماء بإنزال الماء ومن الأرض بإخراج الثمرات والزروع وغيره، هل هناك إله يفعل ذلك غير الله سبحانه؟ قل لهم: أين دليلكم على زعمكم الباطل أن لله شريكًا في ملكه وحكمه وعبادته؛ إن كنتم صادقين في هذا الزعم فقدموا الحجة؟

﴿٦٥﴾ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: ليس في الكون أحدٌ يعلم ما غاب عن الأبصار إلا الواحد القهار، ولا يعلم الناس متى يُبعثون من القبور ليوم الحساب والنشور.

﴿٦٦﴾ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

بل تكامل علمهم في اليوم الآخر فأيقنوا بالبعث بعد الموت بعدما شاهدوا الأهوال بعيونهم، حينها أصبحوا على يقين من ذلك اليوم، وكانوا في دنياهم في شك وريبة منه، بل عميت بصائرهم فكذبوا به.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾

وقال الكفار: هل نُبعث بعد الموت ونعود أحياءً بعدما فنينا نحن وآباؤنا؟! إن هذا لبعيد بل مستحيل.

﴿٦٨﴾ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

لقد سبق أن وُعدنا بالبعث بعد الموت نحن وآباؤنا، فما وقع شيء من ذلك، وما رأينا أحدًا عاش بعدما مات، ما هذا الوعد إلا من خرافات المتقدمين ومن أكاذيب الأولين.

﴿٦٩﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

قل - أيها النبي - لهؤلاء الكفار: اذهبوا في الأرض للاعتبار، وتفكروا في ديار المجرمين كيف أهلكهم الله وأبادهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حلَّ بهم.

﴿٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

ولا تحزن - أيها النبي - من تكذيب الكفار، ولا يضق صدرك من كيد الفجار، فإن الله سوف ينصرك، ولك ولأتباعك عاقبة الدار.

﴿٧١﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

ويقول الكفار: متى يقع العذاب الذي تعدنا به يا محمد؟ إن كنتم صادقين أنه واقع فأين هو؟

﴿٧٢﴾ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾

قل - أيها النبي - ربما دنا منكم العذاب الذي تستعجلونه من الله وأنتم لا تشعرون فهو قريب وأنتم عنه في غفلة.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

وإن ربك -أيها النبي- متفضل على الناس حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعذاب على ذنوبهم وخطاياهم، ولكن أكثر البشر لا يشكرون الله على هذا الإمهال، ولا يخلصون له الطاعة ويفردونه بالعبودية.

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

وإن ربك لمطلع على ما في السرائر وما تكِّن الضمائر وما تخفيه الصدور، عالم بكل خافٍ ومستور.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

وليس هناك أمر يغيب عن عيون البشر في السماء والأرض إلا في كتاب مسطر واضح عند الله، فالله علم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

﴿٧٦﴾ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

إن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ يقص على بني إسرائيل ويبين لهم ما اختلفوا فيه، ويوضح لهم كل شبهة لُبِّست عليهم، الحق والعدل والفصل.

﴿٧٧﴾ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وهذا القرآن هداية لمن تمسك به من الضلال، وفيه الرُّشد من الغي، فهو رحمة من الله لمن اتبعه، فهو يوصل صاحبه إلى رضوان الله ويدله على سبيل الفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

إن ربك وحده يفصل بين المتخاصمين من اليهود وغيرهم في كل ما اختلفوا فيه، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وهو العزيز الذي عزَّ في ملكه فقهر عدوه، وغلب بجبروته فقصم من حاربه، العليم الذي اطلع على كل كائنة، وعلم كل سر وجهر، وظاهر وباطن، فلا يلتبس عليه خطأ من صواب.

﴿٧٩﴾ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾

ففوِّض أمرك إلى الله - أيها النبي - ومن اتبعك، واعتمد عليه، وكِلِ الأمر كله له، فإنه سيكفيك ويحميك ويهديك؛ لأنك على طريق صحيح وسبيل قويم وهداية عظيمة.

﴿٨٠﴾ ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾

إنك - أيها النبي - لا تستطيع أن تُسمِع الهدى لمن أمَات الله قلبه بالكفر والمعاصي، ولا تستطيع أن تسمع صوتك بالحق من أصمَّ الله سمعه، فلا يسمع الهدى عند إدباره كارهًا للهداية معرضًا عن الحق.

﴿٨١﴾ ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

وما أنت - أيها النبي - بهادٍ من أضله الله فأعماه عن سبيل الحق، ولا تستطيع أن تسمع صوتك بالحق إلا من صدق بآيات الله وهو منقاد لأمره، خاضع لطاعته.

﴿٨٢﴾ ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

وإذا أوجب الله عليهم العقاب لكفرهم وعصيانهم وتماديهم في الطغيان أخرج الله لهم من الأرض دابةً -وهي من علامات الساعة الكبرى- تقول لهم: إن الناس كذبوا بالبعث بعد الموت وكانوا بآيات الله وبرسالة الرسول ﷺ لا يصدقون ولا يؤمنون.

﴿٨٣﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

ويوم يجمع الله يوم القيامة من كل أمة طائفة ممن كذب بآيات الله وأنكر براهينه يوقف أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا جميعًا ثم يساقون إلى موقف الجزاء.

﴿٨٤﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

حتى إذا حضر من كل أمة طائفة من الذين أنكروا آيات الله وكذبوا رسله فاجتمعوا سألهم الله: لماذا كذبوا بآياته التي بعث بها رسله، وبالأدلة التي نصبها الله للناس في الكون من بديع الخلق وجميل الصنع الدالة على قدرته ووحدانيته - سبحانه - ولم يحيطوا علمًا ببطلانها حتى يردوها وينكروها؟ أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟ والله أعلم بما كانوا عاملين.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾

وأوجب الله عليهم كلمة العقاب لكفرهم وعصيانهم فهم لا يتكلمون بعذر صحيح ينفعهم عند الله، ولا يستطيعون النطق بحجة صادقة تدفع عنهم عذاب الله.

﴿٨٦﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ألم ير الكفار أن الله جعل الليل مستقرًا للعباد يستريحون فيه من الأعمال وينامون فيه راحةً للأبدان، وجعل النهار مضيئًا بالشمس يبصرون فيه فيقومون لطلب الرزق وكسب العيش فيه، إن في تعاقب الليل والنهار لبرهانًا ساطعًا على قدرة الله وعظمته ووحدانيته لقوم يصدقون بالآيات ويتبعون الرسل عليهم السلام.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم ينفخ الملك إسرافيل في القرن فيخاف كل مخلوق في السموات وفي الأرض خوفًا عظيمًا من شدة النفخة إلا من استثناه الله ممن سلمه الله من هذا الفزع، وكل مخلوق يعود إلى ربه صاغرًا ذليلاً.

﴿٨٨﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

وتشاهد الجبال تظنها أنها واقفة مكانها مستقرة في موضعها وهي تمشي مشيًا سريعًا كمشي الغمام الذي تسوقه الرياح، وهذا من صنع الله اللطيف الخبير الذي أحسن في خلقه وأبدع في صنعه، إن الله خبير بما يعمل الناس من حسن وسيء، وسيحاسبهم على ذلك.

﴿٨٩﴾ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾

من جاء بالتوحيد مع العمل الصالح فصدق في عبادة الله وأخلص له الطاعة فالله يدخر له من الثواب أعظم من عمله وأجل من سعيه، وهي جنة عرضها السموات والأرض، وهم في أمن من الخوف العظيم؛ لأن الله أنزل عليهم السكينة وبشرهم بالفوز.

﴿٩٠﴾ ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ومن أتى إلى ربه يوم القيامة بالشرك والمعاصي الكبيرة، فإن الله يكبه على وجهه في نار جهنم، ويُقال له -تبكيتًا-: هل هذا العذاب إلا جزاءٌ لك على فعلك القبيح من شرك وعصيان.

﴿٩١﴾ ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

قل - أيها النبي للأمة -: إن الله أمرني أن أعبده وحده، فهو رب هذه البلدة -وهي مكة- التي شرّفها الله بأن حرمها على الناس، فلا يسفك فيها دم حرام أو يصاد صيد أو يقطع شجر، والله يملك كل شيء فيتصرف في ملكه كما يريد، والله أمرني أن أعبده وحده دون غيره وأن أكون من الخاضعين لحكمه المنقادين لشرعه المسابقين لطاعته.

﴿٩٢﴾ ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

وأمرني ربي أن أقرأ كتابه على العباد، لأقيم عليهم الحجة، فمن صدق وعمل صالحًا فثواب ذلك ونفعه يعود إليه وقد أحسن في نفسه، ومن كذب وأعرض فأخبره - أيها النبي - أنك منذر من الله تقيم الحجة على العباد ولا تملك هداية الناس، فالهادي والمضل هو الله وحده.

﴿٩٣﴾ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قل - أيها النبي -: الثناء كله والحمد جميعه والشكر أوله وآخره لله وحده، وسوف يريكم - أيها الناس - الآيات التي تدل على ألوهيته وقدرته في الآفاق وفي أنفسكم، فتعرفون هذه الأدلة معرفةً يظهر لكم بها الرشد والغي والحق والباطل، والله ليس بغافل عن أعمالكم، بل هو مطلع عليها يحصيها لكم وسوف يحاسبكم عليها.

مكية

سورة القصص

ترتيبها ٢٨ | آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿طسٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

﴿٢﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

هذه آيات القرآن المنزل على الرسول ﷺ الذي أوضح الله فيه كل أمر يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم.

﴿٣﴾ ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

سوف يخبرك الله - أيها النبي - في هذه السورة بقصة موسى وفرعون بخبر صادق لمن يؤمن بهذا القرآن ويصدق بما جئت به، ويتبعك ويعمل بطاعة الله.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

إن فرعون تكبر وتجبر وعتا وتمرد وتجاوز الحد في الظلم من قتل وبطش واستعباد وبغي، وجعل أهل مصر جماعات مختلفة، يستعبد جماعة منهم ويذلهم ويسخرهم لخدمته وهم بنو إسرائيل، فيقتل الرجال ويترك النساء للخدمة، إنه أفسد في الأرض فسادًا عظيمًا.

﴿٥﴾ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

ويريد الله أن ينعم على من استعبدهم فرعون وأذلَّهم في مصر من بني إسرائيل، ويجعلهم قادةً في البر والصلاح، ودعاةً إلى الهدى والفلاح، ويجعلهم ورثة للأرض بعد أن يهلك فرعون وجنده؛ لتكون العاقبة لمن اتقاه.

﴿٦﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾

ويمكن الله للمستضعفين من عباده في الأرض، ويري فرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين المؤمنين ما كانوا يخشونه من استيلاء على ملكهم وذهاب لدولتهم وإخراجهم من أوطانهم أذلاء صاغرين.

﴿٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

وألهم الله أم موسى حين ولدته وخافت عليه أن يقتله فرعون أن ترضعه وهي واثقة بوعد الله، فإذا خافت أن ينكشف أمرها فلتضعه في صندوق وتلقيه في النيل ولا تخف من فرعون وجنده أن يذبحوه، ولا تحزن على فراقه، فقد وعدها الله أن يرد ولدها إليها سالمًا غانمًا، وأن يبعثه رسولاً.

﴿٨﴾ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾

فأغلقت عليه في صندوق وألقته في الماء، فوجده جند فرعون وأخذوه، ليكون عوناً لهم وولداً يربونه ولكنه صار عدواً لهم وسببًا لحزنهم وذهاب ملكهم، إن فرعون وهامان وأعوانهما كانوا ظالمين عتاة مجرمين.

﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وقالت امرأة فرعون له: إن موسى سوف يكون مصدر أنس وسرور لي ولك فلا تقتله، فقد تعود علينا حياته بفائدة أو يكون ابنًا لنا، ولم يكن لهما ولد، وفرعون ومن معه لم يعلموا بأن نهايتهم على يد هذا الطفل.

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وصار قلب أم موسى خاليًا من كل شيء إلا من تذكر موسى والتفكر في حاله، وأوشكت أن تظهر للناس أنه ولدها لولا أن ثبتها الله وصبَّرها فسكنت لموعود الله ووثقت بكفايته - سبحانه - فكانت مصدقة موقنة بما أوحى الله إليها به.

﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وقالت أم موسى لأخت موسى حين وضعته في الماء: تتبعي آثار موسى، ماذا يُعمل به، فتتبعت آثاره فعرفته عن بُعد ولم يعلم قوم فرعون أنها أخته وأنها تريد معرفة أخباره.

﴿ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾

وحرَّم الله على موسى الرضاعة من أيّ امرأة غير أمه؛ لطفًا به وبأمه، فقالت أخته: ألا أدلكم على امرأة في بيت تحسن رضاعته وتربيته والقيام عليه، وهي حافظة له حريصة عليه؟ فأجابوها إلى ما طلبت.

﴿ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

فأعاد الله موسى إلى أمه؛ ليتم سرورها، ويهدأ بالها، ولينجز الله لها ما وعد، فعاد سالمًا محفوظًا برعاية الله، فذهب خوفها عليه وحزنها من فراقه، ولتعلم أم موسى أنما وعدها الله به حق لا شك فيه، حيث رده إليها، والله لا يخلف ما وعد به، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن وعد الله واقع لا محالة.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

ولما بلغ موسى تمام قوته وكمال عقله، أعطاه الله الحكم والعلم، وفقهه في دينه، ومثلما جزى الله موسى على عبادته وتقواه يجزي الله كل من أطاعه وتولاه.

﴿ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾

ودخل موسى المدينة مستخفيًا عن العيون في زمن غفلة من أهلها لئلا يشعروا به، فوجد فيها رجلين يقتتلان: أحدهما من قومه بني إسرائيل، والآخر قبطي من قوم فرعون، فطلب الإسرائيلي من موسى المساعدة على قتل القبطي، فضرب موسى القبطي بمجمع كفه فمات، فندم موسى على ذلك وقال: هذا العمل من تزيين الشيطان حيث استثارني بضرب القبطي، إن الشيطان عدو للإنسان يضله عن الهدى ويورده موارد الردى، وكان هذه الفعل من موسى قبل النبوة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال موسى بعدما قتل القبطي: ربِّ إني ظلمتُ نفسي بقتل النفس المعصومة التي لم تأمرني بقتلها فاغفر لي هذه المعصية، فغفر الله له ذنبه، إن الله كثير الغفران لمن تاب من أهل العصيان، واسع الرحمة لمن أناب وتاب.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

قال موسى: ربِّ بسبب إنعامك عليَّ بالعفو والرحمة والعلم والحكمة فلن أكون مساعدًا لأحدٍ على ظلمه وجوره.

﴿١٨﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾

فأصبح موسى في مدينة فرعون خائفًا يترقب ويستمع الأنباء عنه وعمن قتله من أهل مصر، فرأى الإسرائيلي الذي طلب مساعدته بالأمس على قتل القبطي يطلب منه الإعانة على قتل قبطي آخر، فردَّ عليه موسى بقوله: إنك شديد الغواية كثير الظلم والطغيان.

﴿١٩﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾

فلما عزم موسى على قتل القبطي، ظن الإسرائيلي أنه يريده، فقال لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت قبطياً بالأمس؟ (فسمع القبطي كلامه فسعى بالخبر لفرعون) ما تريد إلا أن تكون ظالمًا مستبدًا وما تريد أن تكون من أهل الإصلاح والخير والاستقامة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾

وأتى رجل يسعى من آخر المدينة فأخبر موسى أن أعيان البلد يتشاورون في قتلك، فاهرب من المدينة فإني ناصح لك مشفق عليك.

﴿٢١﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

فهرب موسى وهو خائف ينتظر الأخبار ويتوقع أن يدركه أحد لأخذه، ودعا ربه أن ينجيه من الظلمة ومن بطشهم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

ولما قصد موسى ديار مدين وهرب من فرعون قال: عسى ربي أن يدلني على أفضل طريق إلى مدين وأن يرشدني إلى أحسن سبيل.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

ولما وصل موسى ماء مدين وجد عليه طائفة من الناس يسقون دوابهم، ووجد من دون تلك الطائفة فتاتين على انفراد من الجمع قد حبستا الغنم عن الماء؛ عجزًا ووهنًا عن مزاحمة الرجال، وتنتظران فراغ الناس من السقي لتسقيا غنمهما، فلما شاهد موسى ضعف الفتاتين رحمهما وقال: ما خبركما؟ فأجابتا: لا نستطيع مزاحمة الرجال ولا نسقي حتى ينتهي الناس من سقيهم، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على سقي غنمه ومزاحمة الناس.

﴿٢٤﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

فسقى موسى غنم الفتاتين ثم ذهب إلى ظل شجرة فجلس تحتها وقال: ربِّ إني في فقر إلى رزقك وفضلك من طعام ونحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

فعادت إحدى الفتاتين تسير وهي مستحية فقالت لموسى: إن أبي يدعوك ليعطيك ثواب سقي غنمنا، فسار موسى مع الفتاة، فلما التقى بأبيها وأخبره ما جرى له في مصر مع فرعون وقومه وهربه منهم قال له أبو الفتاة: لا تخف قد نجاك الله من الظلمة، فلا سلطان لهم علينا ولن يصل أذاهم إلينا.

﴿٢٦﴾ ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

قالت إحدى الفتاتين لأبيها: يا أبتِ استأجر موسى لرعي الأغنام، إن أفضل من تستأجره القوي على حفظ الغنم، الأمين الذي لا يخون من ائتمنه، فلا خير في الضعيف الخائن.

﴿٢٧﴾ ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قال أبوهما لموسى: إني أريدُ أن أزوجك إحدى هاتين الفتاتين على أن تقوم برعي غنمي ثماني سنين فإن أكملت عشر سنين فهذا الفضل منك، ولن أشق عليك باشتراط العشر، فسوف تجدني - إن شاء الله - من الصالحين في حسن المعاملة، واللطيف بالأجير والوفاء بالوعد.

﴿٢٨﴾ ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

قال موسى: هذا اتفاق بيني وبينك، فأي المدتين قضيتهما في الرعي أكن وافيًا، وليس عليَّ لوم في ترك الزيادة، والله شاهدٌ على ما اتفقنا عليه، مراقب لأعمالنا، مطلع على سرِّنا وعلانيتنا، وهو خير الشاهدين.

﴿٢٩﴾ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

فلما أتم موسى - عليه السلام - عشر سنين وهي أكمل المدتين وذهب بأسرته إلى مصر رأى في جانب الطور نارًا، فقال لأهله الزموا مكانكم وانتظروني فإني شاهدتُ نارًا لعلي آتيكم منها بنبأ يدلنا على الطريق، أو خبر من أهلها، أو آتي بقبس من النار تستدفئون به من البرد.

﴿٣٠﴾ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

فلما وصل موسى إلى النار ناداه الله من جهة الوادي الأيمن لموسى في المكان المبارك من جانب الشجرة وقال له عن نفسه سبحانه: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾

وأمره بإلقاء عصاه فتحولت - بإذن الله - إلى ثعبان عظيم يتحرك بشدة كأنه جان من الحيات، فلما رأى موسى ذلك المشهد فر هاربًا ولم يلتفت إلى الثعبان من شدة الخوف، فناداه الله أن يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين من كل ما يؤذيك؛ لأن من كان في رعاية الله أمن من كل مكروه.

﴿٣٢﴾ ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

وأدخلْ يا موسى يدك في فتحة قميصك تخرج بيضاء من غير مرض ولا برص، وضم يدك إلى صدرك لتسكن نفسك ويهدأ قلبك، فهاتان العلامتان وهما: تحويل العصا إلى ثعبان وكون اليد بيضاء من غير مرض ولا برص دليلان عظيمان إلى فرعون وسادة قومه على قدرة الله ووحدانيته وصدق موسى، إن فرعون وأعيان قومه كانوا خارجين عن طاعة الله متجاوزين حدوده.

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾

قال موسى لربه سبحانه: يا رب، إني قتلت من قوم فرعون نفسًا لم أُومَرْ بقتلها فأخاف أن يقتلوني بتلك النفس.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾

وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا وأقدر مني على الكلام فأرسل -يا ربِّ- معي هارون؛ ليكون نبيًا مثلي يعاونني في الرسالة؛ علَّ فرعون أن يصدقني فإنني أخشى أن يكذب بما أُرسلتُ به.

﴿٣٥﴾ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

قال الله لموسى: سنقوي جانبك ونعينك بأخيك هارون، وننصركما على فرعون وقومه بالبرهان الظاهر والحجة القاطعة، فلا ينالونكم بأذى، أنت يا موسى وهارون ومن اتبعكما من المؤمنين منصورون ظاهرون على فرعون بأدلتنا الصادقة.

﴿٣٦﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

فلما جاء موسى فرعون ومن معه بالبراهين المنزلة من الله والحجج الصادقة التي توضح الحق من الباطل، قالوا لموسى: ما هذا الذي بُعثت به إلا نوع من السحر الذي زورته واختلقته، وهو باطل وكذب وما سبق لنا أن سمعنا مثل هذا الزور فيما تقدم من القرون.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

وقال موسى لفرعون: إن ربي يعلم الصادق الذي جاء بالحق من الكاذب الذي يخاصم بالباطل، وهو -سبحانه- أعلم بمن سوف تكون له العاقبة المحمودة والنهاية الحسنة عنده في الآخرة، إن الظالمين لا يفوزون بخير ولا يوفقون لرشد.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

وقال فرعون لأعيان قومه: يا أيها الأشراف: أنا لا أعلم إلهًا لكم غيري فاعبدوني وحدي، وأوقد لي يا هامان على الطين نارًا حتى يقوى ويشتد، ثم ارفع عليه بناءً عاليًا، لعلي أرى الإله الذي يعبده موسى من دوني، وإني أظن أن موسى كاذب في دعواه؛ بأن له إلهًا غيري.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾

وتعاظم فرعون وتجبر هو وجنوده في مصر بالباطل والفساد في الأرض والظلم، وحسب فرعون وقومه أن لا معاد ولا رجوع إلى رب العباد.

﴿٤٠﴾ ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾

فأهلك الله فرعون وجنوده وأبادهم وأغرقهم في البحر، فانظر كيف كانت مصارع الطغاة، ونهاية الظلمة الذين كفروا بالله وحاربوا رسله.

﴿٤١﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

وجعل الله فرعون وقومه دعاةً إلى النار وقادة إلى الجحيم، يقتدي بهم الضلال والجبابرة، وهم يوم القيامة لا ينصرون أنفسهم وليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾

وأتبع الله فرعون وقومه في الحياة الدنيا سخطًا وعارًا وخزيًا وغضبًا منه، ويوم القيامة هم ممن قبُحت أعمالهم فساء مصيرهم وخاب سعيهم.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

ولقد أعطى الله موسى التوراة من بعد ما أفنى الأقوام السابقين كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، وفي التوراة براهين ساطعة وأدلة قاطعة لبني إسرائيل يهتدون بها إلى الحق ويجتنبون بنورها الباطل إذا عملوا بها، وفيها أسباب الرحمة والمغفرة، لعلهم يتذكرون فضل الله عليهم فيؤمنوا به ويتبعوا رسوله - عليه السلام - ويهتدوا بهداه.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

وما كنت - أيها النبي - بجانب الجبل الغربي مع موسى إذ كلمه الله، ولم تحضر ذلك المشهد.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

ولكن الله خلق أجيالاً فمر عليهم زمن طويل فنسوا توحيد الله وعبادته وأعرضوا عن دينه، وما كنت نازلاً في أهل مدين تقرأ عليهم كتاب الله، فتدرك أخبارهم وتطلع على أمورهم، ولكن هذه القصة التي أخبرت بها قومك عن موسى دليل على رسالتك وبرهان على نبوتك.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وما كنت - أيها النبي - حاضرًا بجانب جبل الطور حين كلم الله موسى، ولكن الله أوحى إليك بخبر ذلك رحمة من الله بك ولطفًا، لتخوف أمة ما سبق أن جاءهم رسول من عند الله لعلهم يتذكرون ما أنزل الله إليك؛ فيعملوا به ويتركوا ما سواه من أعمال الشرك والجاهلية.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولولا أن ينزّل الله بالكفار عذابًا بسبب كفرهم، فيقولوا: يا ربنا لماذا لم ترسل إلينا رسولاً من قبل أن تعذبنا، فنعمل بالآيات التي أنزلتها ونكون ممن صدق بكتابك وبرسولك ﷺ.

﴿٤٨﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾

فلما جاء الرسول ﷺ كفار مكة يخوفهم عذاب الله قالوا معترضين: لماذا لم يعطه الله من المعجزات الحسية الظاهرة مثلما أعطى موسى كعصاه ويده البيضاء؟ قل لهم - أيها النبي -: أما كفر بنو اسرائيل بمعجزات موسى من قبل؟ وقالوا: إن التوراة والقرآن سحران تعاونا في سحرهما، وقالوا: كفرنا بالتوراة والقرآن.

﴿٤٩﴾ ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

قل - أيها النبي لهم -: تعالوا بكتاب منزّل من الله هو أعظم هداية وأحسن رشدًا من التوراة والقرآن، أهتدي به وأعمل بما فيه إن كنتم صادقين في دعواكم.

﴿٥٠﴾ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

فإن لم يأتوا بما سألتهم إياه من كتاب غير القرآن والتوراة، وانقطع عذرهم وبارت حجتهم، فاعلم أنهم أهل هوى ليسوا بأهل دليل، ولا أحد أشد ضلالاً وأكثر غيًا من صاحب الهوى التارك لشرع الله، إن الله لا يرشد إلى الصواب المتجاوزين لحدوده العاصين لأمره المحاربين لدينه.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

ولقد بيَّن الله القرآن وفصّله رحمة بالناس، لعلهم يعتبرون بما فيه ويتعظون بآياته.

﴿٥٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ولم يحرِّفوا ولم يبدلوا يصدّقون بالقرآن أيضًا كعبد الله بن سلام وغيره.

﴿٥٣﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾

وإذا قُرئت آيات القرآن على المؤمنين به من أهل الكتاب، قالوا: صدَّقنا بصحة ما فيه وأنه من عند الله واتبعناه، إنه حق نزل من الله - تعالى - إنا كنا من قبل أن ينزّل القرآن على محمد ﷺ موحدين على دين الإسلام الذي هو دين الرسل جميعًا.

﴿٥٤﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

هؤلاء المصدقون بكتابهم السابق وبالقرآن يضاعف الله لهم الأجر مرتين لإيمانهم بالكتابين؛ ولأنهم صابرون على أداء الطاعة واجتناب المعصية، وهم يدفعون السيئة بالحسنة، أي يعملون الطاعة بعد المعصية تكفيرًا لها، أو يقابلون الإساءة بالإحسان، وهم يتصدقون لوجه الله مما أعطاهم الله.

﴿٥٥﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

وإذا سمع هؤلاء الأبرار باطلاً من القول لم يصغوا إليه بل نزهوا أسماعهم عن الإنصات له، وقالوا: لنا أعمالنا فنحن مسؤولون عنها، ولكم أعمالكم وإثمها عليكم، فلن نجيبكم على باطلكم ولا نشارككم في معاصيكم، ولكم السلامة من أذانا فلن نتشاغل بالرد على الجهلاء ومعاملة السفهاء بالمثل، فأعظم رد على السفيه السكوت والإعراض.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

إنك - أيها النبي - لا تهدي هداية توفيق من أحببته من الناس وأحببت هدايته، ولكن الهادي وحده هو الله، فهو الذي يوفق من شاء من عباده للهدى، وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيشرح صدره لها ويدله عليها.

﴿٥٧﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وقال الكفار للرسول ﷺ: إن نتبع الهدى الذي بعثت به والتوحيد الذي أُرسلت به وترك عبادة الأصنام والأوثان يتخطفنا الناس من ديارنا بالقتل والأسر والنهب والسلب. أولم يهيئ الله لهم بلدًا آمنًا مطمئنًا وهو مكة البلد المحرم منذ خلق الله السموات والأرض، يجلب إليها خيرات الأرض وثمرات كل من الفواكه والحبوب والزروع رزقًا من عند الله؟ ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن المنعم حقيقة هو الله، فلا يشكرونه بتوحيده وإخلاص العبادة له.

﴿ ٥٨ ﴾ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

وكثير من أهل القرى أهلكهم الله ودمرهم حين أشغلتهم معيشتهم وألهتهم شهواتهم عن الإيمان بالله وطاعته واتباع رسله، فكذبوا وأعرضوا، فهذه مساكنهم كما ترى خاوية بعد فنائهم لم يسكنها أحد بعدهم إلا القليل، والله الوارث لعباده، الباقي بعد فناء خلقه، يعود إليه الجميع فيجزي كل عامل بما عمل.

﴿ ٥٩ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾

ولم يكن الله – سبحانه – بمهلك ولا مدمِّر القرى التي حول مكة في زمن الرسول ﷺ حتى يرسل في أم هذه القرى وأكبرها وأشرفها وأوسطها وهي مكة رسولاً هو محمد ﷺ يقرأ آيات القرآن على الناس، ولم يكن الله بمهلك القرى إلا بعد ما يظلم أهلها أنفسهم بالكفر بالله ومحاربة رسله وعصيان أمره، فيستحقون الهلاك والدمار، فكل قرية لا يعذب الله أهلها حتى يقيم الحجة عليهم بإرسال رسول إليهم.

﴿ ٦٠ ﴾ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وما أعطاكم الله – أيها العباد – من أموال وأولاد فإنما هو للمتعة في هذه الحياة الفانية والدنيا الزائلة، وجمال لكم أمام الناس، والذي عند الله لأوليائه وعباده الصالحين خير وأبقى؛ لأنه مبارك هنيء دائم لا نهاية له، أفلا تتفكرون في هذا الأمر فتميزوا بين الصالح وغيره؟

﴿ ٦١ ﴾ ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

أفمن وعده الله – سبحانه وتعالى – من عباده على عمله الصالح جنات النعيم فهو حاصل على هذا الوعد؛ لأن الله سوف ينجزه له ويفي به كما وعد، فهل مثله كمثل من متعه الله في الدنيا القصيرة بشهوات منقضية ولذائذ زائلة فآثر الدنيا على الآخرة ونسي لقاء الله ثم يحضر عند الله يوم القيامة ليجازيه بما فعل، فهل هذا مثل هذا؟ فليفكر الإنسان في أي الأمرين أصلح وليختر لنفسه الأرشد.

﴿ ٦٢ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

ويوم ينادي الله – تعالى – المشركين فيقول لهم: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دوني وَتدَّعُون أنها مشاركة لي في ألوهيتي؟

﴿ ٦٣ ﴾ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾

قال الكفار الذين وجب عليهم عذاب الله: ربنا هؤلاء الذين أضللنا، قد أضللناهم بغوايتنا لهم كما ضللنا نحن، فاليوم نبرأ إليك من نصرتهم وولايتهم، وهم لم يكونوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون الشياطين التي أوحت إليهم بالشرك.

﴿ ٦٤ ﴾ ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾

وقيل للكفار يوم الدين: نادوا آلهتكم المزعومة التي كنتم تعبدونها من دون الله، فنادوهم فلم يجدوا عندها جوابًا، وشاهدوا العذاب بعيونهم، ولو أنهم كانوا في الدنيا على هدى وطاعة لله لما عذبهم الله.

﴿ ٦٥ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

ويوم ينادي الله الكفار يوم القيامة فيسألهم: ما جوابكم لرسلنا حينما أرسلناهم إليكم بالإيمان والعمل الصالح؟

﴿ ٦٦ ﴾ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

فغابت عنهم الحجج واختفت منهم البينات، ووقعوا في حيرة ماذا يقولون؟! فهم لخوفهم واضطرابهم لا يسأل بعضهم بعضًا عن حجة مقبولة يجيبون بها عن سؤال الله لهم.

﴿٦٧﴾ ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

فأما من تاب من الكفر وصدق في طاعة الله وعمل بما شرعه واتبع رسوله ﷺ فهو ممن نال المطلوب، ونجا من المرهوب، وحاز الرضوان والجنان.

﴿٦٨﴾ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وربك الخالق المبدع المصور يخلق ما أراد أن يخلقه، لا راد لقضائه، ويصطفي لرسالته ولعبادته ما أراد من خلقه، وليس للعباد شيءٌ من الخلق والاصطفاء والقضاء، بل الله وحده المالك لكل ذلك، تعالى عن ما أُشرك به، وتنزه عما وصفه به المبطلون.

﴿٦٩﴾ ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

وربك العالم بما أخفته الصدور وما أظهرته الألسن، فالغيب عنده شهادة، والسر لديه علانية.

﴿٧٠﴾ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وهو الله الذي لا يستحق العبادة غيره، ولا يستأهل الألوهية سواه، له المحامد كلها والمدائح أجمعها، والثناء الجميل أوله وآخره، وله الشكر على نعمه، وهو الحاكم وحده في أمور عباده، يشرِّع لهم ما ينفعهم، وإليه يعود العباد يوم المعاد؛ ليحكم بينهم.

﴿٧١﴾ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾

قل أيها النبي: أخبروني - أيها العباد -: لو صيَّر الله عليكم الليل دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة بلا نهار، هل هناك إله غيره - سبحانه - يخلق لكم ضياءً تستضيئون به في هذه الظلمة المتصلة؟ أفلا تسمعون العظات سماع من استفاد وانتفع وقبل وعمل؟!

﴿٧٢﴾ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

قل - أيها النبي للعباد -: أخبروني إن صيَّر الله عليكم النهار دائمًا مستمرًا بلا ليل إلى يوم القيامة، هل هناك إله غير الله - سبحانه - يخلق لكم ليلاً تنامون فيه وتستريحون وتهدؤون؟ أفلا تنظرون آيات الله في تصريف الليل والنهار نظر اعتبار؟

﴿٧٣﴾ ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ومن رحمة الله بعباده أن خلق الليل والنهار فغاير بينهما، فجعل الليل وقت راحة لأبدانكم وزمن انقطاع لأعمالكم، تستريح فيه الأجسام وتنام فيه العيون، وجعل النهار ضياءً لتقوموا بأعمالكم وكسب معيشتكم، ولتشكروا الله على فضله بإخلاص العمل له ولزوم طاعته.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

ويوم القيامة ينادي الله الكفار، فيقول لهم: أين آلهتكم التي كنتم تَدَّعُون ألوهيتها معي ، والمعنى هل تجلب لكم نفعًا أو تدفع عنكم ضرًا؟

﴿٧٥﴾ ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

وأخذ الله من كل أمة من الأمم الكافرة شاهدًا عليهم منهم يشهد بما عملوه في الدنيا من كفر وتكذيب، وأمر الله تلك الأمم الكافرة أن تأتي بأدلتها وبراهينها على صحة ما ادعته من الشرك، حينها علم الكفار أن الحجة البالغة

للواحد القهار، وأن الله مستحق وحده للعبودية لا شريك له، وذهب عن الكفار كل دعوى باطلة وحجة كاذبة، فلم يجدوا من يشفع لهم أو يدفع عنهم العذاب، فلا عذر يُقبل ولا صديق ينفع ولا ولي يشفع ولا ناصر يدفع.

﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾

إن قارون كان من بني إسرائيل قوم موسى - عليه السلام - وليس مصريًا، فعلا في الأرض وتكبر على العباد وطغى بماله، وأعطاه الله من الكنوز الهائلة والأموال الطائلة ما يفوق الوصف، إلى درجة أن مفاتيح الخزائن لا يستطيع حملها الكثير من الرجال الأقوياء، إذ نصحه قومه وقالوا له: لا تكن أشرًا بطرًا متكبرًا فرحًا بالدنيا الزائلة، فإن الله لا يحب من عباده البطرين المتكبرين المتجبرين الذين لا يشكرون النعمة، ولا يعبدون الخالق، ولا يتواضعون للمخلوق.

﴿٧٧﴾ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

واقصد بهذا المال ما عند الله من الثواب والتمس مرضات الله فيما أعطاك من النعم والخيرات، ومع عملك للآخرة فلا تترك حصة الدنيا من التمتع بالطيب الحلال بلا تقتير ولا تبذير، وأحسنْ إلى العباد بالنفع والإعانة مثلما أحسن الله إليك بالعطايا الجزيلة، ولا تقصد الفساد من القول والعمل بالزور والظلم وعمل الفواحش والمنكرات، واحذر أن تلتمس ما يغضب الله من الكبر والعدوان، إن الله لا يحب المفسدين الذين لا صلاح في أقوالهم ولا أعمالهم، وإنما هم أهل أذى وشر وظلم.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

قال قارون لمن نصحه: إنما أُعطيت هذا المال والثراء؛ لأن عندي علمًا فُضِّلتُ به وقدرة على اكتساب المال، أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك كثيرًا ممن سبقه ممن كان أقوى منه وأكثر مالاً؟ ولا يسأل الله المجرمين عن ذنوبهم؛ لعلمه بها واطلاعه عليها، وإنما يُسألون تبكيتًا وتقريرًا، ويعذبهم الله على علمه بذنوبهم.

﴿٧٩﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

فخرج قارون على قومه وهو متجمل بلباسه، فخور بماله معجب بنفسه، فلما أبصره أهل الدنيا العاملون لها تمنوا أن يكون لهم من الأموال والجمال والجاه مثلما لقارون؛ لأنه محظوظ عندهم لما حصل له من متاع الدنيا.

﴿٨٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

وقال أهل العلم النافع الذين عرفوا الله وأدركوا الفقه في دينه والعلم بشرعه يردون على أهل الدنيا: الويل لكم والخيبة، إن الأجر الموعود به عند الله لمن اتقاه وعمل بشرعه أفضل وأرفع من أموال قارون وجاهه، ولا يقبل هذه الموعظة وينتفع بها إلا من صبر على طاعة الله وصبر عن معاصيه، ورضي بحُكْمه وجاهد نفسه للعمل بما يحبه الله.

﴿٨١﴾ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

فخسف الله بقارون وبداره الأرض فغاصت به داره وهو بها، فلم يكن له أعوان يدفعون عنه العذاب، وما كان يستطيع الدفاع عن نفسه لضعفه أمام قوة الله عز وجل.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

وصار من تمنى مثل حاله وأعجب به وبأمواله يقولون في ندم وتأثر واعتبار: إن الله يوسع العطاء لمن أراد من الناس ويضيقه على من أراد، لولا أن تفضل الله علينا فلم يعذبنا مثل قارون لخسف بنا معه لإعجابنا بماله وحاله، ألم تعلم أنه لا يفلح الكفار بنيل مطلوب ولا بالنجاة من مرهوب.

﴿٨٣﴾ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

تلك هي الدار الآخرة يجعل الله النعيم فيها لمن تواضع له وخضع لجبروته ولم يتكبر على الخالق ولا على الخلق، ولم يفسد في الأرض بالظلم والمعاصي، والنهاية الحسنة في الجنة لمن اتقى الله وعمل بأوامره واجتنب نواهيه .

﴿٨٤﴾ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

من أتى إلى الله يوم القيامة بالتوحيد الخالص والعمل الصالح مع اجتناب المحرمات فله ثواب جزيل أفضل مما عمل، وهو رضوان الله والخلود في جنته، ومن عاد إلى ربه بالشرك والمعاصي فلا يُجزى إلا بمثل عمله السيء من العذاب والإهانة والنكال.

﴿٨٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

إن الله الذي أنزل عليك القرآن - أيها النبي - وفرض عليك تبليغه للعباد والعمل به والتحاكم إليه سوف يعيدك إلى المحل الذي هاجرت منه وهو مكة، قل - أيها النبي للكفار -: ربي الله وحده أعلم بالمهتدين منا ومن أتى بالحق البيّن ممن هو في بُعد عن الصراط المستقيم وانحراف عن الطريق القويم.

﴿٨٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾

وما كنت - أيها النبي - تنتظر ولا تؤمِّل أن ينزل الله عليك القرآن، ولكن الله رحمة بك وبأمتك أكرمك بهذا الكتاب العظيم، فاشكر مولاك على ما أعطاك، واحمده على ما منَّ به عليك واجتباك، ولا تكونن عونًا للكفار على محاربة الواحد القهار.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

ولا يصرفنك الكفار - أيها النبي - عن تبليغ الرسالة وتوضيح الشريعة بعدما أكرمك الله بالنبوة، وادعُ الناس إلى عبادة الله وحذرهم عذابه، واحذر أن توافق المشركين في شيء من أعمالهم، بل ابرأ منهم ومن فعلهم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ولا تعبد مع الله إلهًا آخر، فلا إله إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، فكل شيء غير الله هالك وميت وفانٍ والبقاء لله وحده، له الحكم يقضي في كل شيء بما أراد؛ لأنه المالك المتصرف، وإليه رجوع العباد يوم القيامة؛ ليجازي كلاً بما فعل، وفي الآية إثبات صفة الوجه لله - سبحانه وتعالى - على ما يليق به - سبحانه وتعالى - من جلال وكمال وعظمة.

مكية

سورة العنكبوت

ترتيبها ٢٩ | آياتها ٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، ولها معان جليلة استأثر بعلمها سبحانه.

﴿٢﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

أظَنَّ العباد أنهم إذا قالوا: آمنا تُركوا على هذه الدعوى ولم يُختبروا ويُبتلوا؟ بلى سوف يُختبرون بالبلاء ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿٣﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

ولقد امتحن الله الأقوام السابقين بإرسال الرسل إليهم، فظهر علم الله في صدق الصادق في إيمانه، وكذب الكاذب في دعواه.

﴿٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

بل ظن أهل الكفر والمعاصي أن يفوتوا على الله فلا يقدر عليهم ولا تدركهم قوته؟ لا والله بل هم في قبضةِ الله، فبئس حكمهم وتصورهم إن ظنوا أن الله عاجز عن مجازاتهم على أعمالهم.

﴿٥﴾ ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

من كان يرجو أن يلقى ربه غدًا ويطمع فيما عنده من الأجر، فإن الأجل الذي وعد الله به العباد للبعث والنشور والثواب والعقاب حاصل لا محالة، وهو السميع للأقوال العليم بالأعمال، ولذلك يقضي بينهم بعلم وحكمة.

﴿٦﴾ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ومن جاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وجاهد نفسه للعمل بما يرضي الله فثواب جهاده لنفسه، ونفع ذلك عائد إليه؛ لأنه ما فعل ذلك إلا طلبًا للأجر؛ لأن الله غني عن إحسان من أحسن في عمله وصلاح من صلح في حاله، فهو - سبحانه - لا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ فله وحده الغنى المطلق والملك كله والخلق جميعه.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

والذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا الصالحات من الأعمال المشروعة سوف يغفر الله ذنوبهم، ويمحو خطاياهم، ويثيبهم على أعمالهم الصالحة أحسن ما كانوا يعملون؛ فيجعل الأجر على أجود عمل فعلوه.

﴿٨﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ووصى الله الإنسان بالإحسان بوالديه برًا ولطفًا ورحمةً في طاعة الله، وإذا حاول الوالدان أن يشرك الولد بالله أو أمراه بالكفر فلا طاعة لهما في ذلك، ومرجع العباد إلى الله ليحاسبهم على ما فعلوا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

٩ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

والذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا الأعمال المشروعة الصالحة فسوف يثيبهم الله على ذلك بدخول جنات النعيم .

١٠ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وبعض الناس يقول: آمنا بالله بألسنتهم، فإذا آذاه الكفار سخط من ذلك وضاق وجزع كما يجزع من عذاب الله وانتهى صبره، فترك الإسلام، ولئن نصر الله الرسول ﷺ والمسلمين ليقولن هؤلاء المتذبذبون للمسلمين: إنا كنا معكم - أيها المسلمون - على محاربة الكفار، أوليس الله بعالم ومطلع على ما تكنه الصدور، ويعلم الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق؟

١١ ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾

وليعلمن الله الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا دينهم واتبعوا الرسول ﷺ وناصروه، وليعلمن من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، وسوف يفصل الله بين الفريقين فيثيب الصادق ويعاقب الكاذب.

١٢ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾

وقال الكفار للمؤمنين: اتركوا دين الإسلام وادخلوا في ديننا فإنا نتحمل عنكم عقاب ذنوبكم وآثار سيئاتكم، وهم كاذبون في ذلك، لن يحملوا منها مثقال ذرة، فدعواهم دعوى باطلة.

١٣ ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

وسوف يحمل هؤلاء الكفار عاقبة ذنوبهم وأوزار خطاياهم مع أوزار كل إنسان أضلوه وكانوا سببًا في غوايته دون أن ينقص من أوزار سيئاتهم شيئًا، وسوف يسألهم الله يوم القيامة عن هذا الافتراء.

١٤ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولقد أرسل الله نوحًا إلى قومه بتوحيده والدعوة إلى عبادته، فبقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فكذبوه فأغرقهم الله بالطوفان، وما ظلمهم الله بل كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والتكذيب.

١٥ ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

فأنجى الله نوحًا ومن آمن معه في السفينة، وجعل الله ذلك عبرةً لمن جاء بعدهم من الأجيال وعظةً لجميع الناس.

١٦ ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

واذكر إبراهيم - عليه السلام - يوم دعا قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون سواه مع العمل بما شرعه واجتناب معاصيه، ففي ذلك الخير كله من السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، والفوز بالجنة لمن ميز بين الخير والشر.

١٧ ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

وأخبرهم إبراهيم أن الذي يعبدونه من دون الله من أصنام وأوثان إنما هو اختلاق وكذب وافتراء؛ لأن هذه الآلهة المزعومة لا ترزق من عبدها وإنما الرازق وحده هو الله - سبحانه وتعالى -، فعلى العبد أن يطلب الرزق منه لا من

سواه، مع إخلاص الطاعة له وإفراده بالعبودية وشكره بالعمل بطاعته وترك معاصيه، وإليه المرجع يوم القيامة فيحاسب الخلق على أعمالهم.

﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ١٨

وإن تكذبوا - أيها العباد - الرسول الكريم محمدًا ﷺ بدعوته لكم بتوحيد الله ولزوم طاعته وإخلاص العبادة له فقد سبقكم أقوام كذبوا رسلهم وحاربوهم فأهلكهم الله، وليس على الرسول إلا تبليغ أمته بدعوته التبليغ الواضح البيّن، ولا يحمل من آثار عصيانهم شيئًا.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ١٩

أولم يعلم هؤلاء المكذبون كيف ينشئ الله الخلق ويبدعه على غير مثال سابق، ثم يعيده - سبحانه وتعالى - بعد أن يفنيه مثلما كان أول مرة لا يصعب عليه شيء من ذلك، بل الكل بكلمة: (كن) فيكون، هذا يسير عليه - سبحانه وتعالى -؛ لكمال قدرته وتمام قوته وحكمته.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٠

قل - أيها النبي - للكفار: اذهبوا في الأرض وانظروا نظر اعتبار وتفكروا كيف أنشأ الله الكون، وخلق الخلق ولم يصعب عليه شيء من ذلك، فإعادته بعد الفناء أيسر وأهون عليه، والله قدير على كل شيء، لا يعجزه شيء أراده ولا يصعب عليه أمر.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ٢١

والله يعذب من شاء من العباد على ما فعله من جُرم وفساد، ويرحم من شاء من عباده إذا تاب وأناب وعمل بطاعته واجتنب معاصيه، والمرجع إليه - سبحانه - وحده؛ ليثيب الطائع ويعاقب العاصي.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ٢٢

وما أنتم - أيها العباد - بمعجزي ربكم في الأرض ولا في السماء، فتخرجون من قبضته أو تفوتون من عذابه إن عصيتموه، وما لكم ولي من دون الله يرعى شؤونكم ويتولى أموركم، وليس لكم نصير ينصركم من عذاب الله، فيدفع عنكم ما يحل بكم من عقوبة ونكال.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٢٣

ومن كذَّب وكفر بالبراهين التي أنزلها الله على رسوله في كتابه وجحد بأدلة الوحدانية والألوهية هؤلاء ليس لهم أمل أبدًا ولا مطمع في رحمة الله إذا رأوا عذابه، وإذا أبصروا ما وعد الله به أعداءه من العقاب، وسوف يذوقون العذاب الشديد المؤلم الموجع في نار جهنم.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٢٤

فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إلا أنهم تشاوروا فيما بينهم أن يقتلوا إبراهيم أو يحرقوه بالنار، ووضعوه في النار، فأنقذه الله منها وجعلها عليه بردًا وسلامًا، إن في إنقاذ الله لإبراهيم ونصره على عدوه لبراهين واضحة لعباد يصدقون أخبار الله ويعملون بأوامره.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

ونصح إبراهيم قومه فقال: إن الذين تعبدونهم من دون الله من أصنام وأوثان إنما هي عبادة باطلة، وقد جعلتموها أنتم سببًا للمودة بينكم في هذه الدنيا الزائلة، تتحابون على عبادتها وتتوادون على نصرتها، فإذا كان يوم القيامة وقعت العداوة بينكم، وتبرأ بعضكم من بعض، ولعن بعضكم بعضًا، ثم يكون مردكم جميعًا إلى نار جهنم، فلا يدفع عنكم أحد عذابها ولا يمنعكم أحد من عقاب الله.

﴿٢٦﴾ ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

فصدَّق لوطٌ إبراهيمَ وآمن بما أُرسل به واتبعه، وقال إبراهيم: إني ذاهب إلى الشام الأرض المباركة، وسوف أهجر أرض قومي؛ لأنها دار كفر، إن الله هو العزيز الذي عزَّ فقهر، وحكم فقدر يقهر من غالبه ويذل من حاربه، الحكيم في تدبيره وصنعه وفي تقديره وشرعه.

﴿٢٧﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ورزق الله إبراهيم بإسحاق ابنًا نبيًا، ومن بعده بالحفيد يعقوب نبيًا، وجعل الله في ذرية إبراهيم الأنبياء الكرام الذين أتوا بالكتب المنزلة من الله، وأعطى الله إبراهيم أجر عمله في الدنيا من الثناء الجميل والذكر الحسن والذرية الصالحة، وهو في الآخرة من الفائزين برضوان الله الناجين من عذابه.

﴿٢٨﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

واذكر نبي الله لوطًا يوم نصح قومه وأنكر عليهم الفعل القبيح من إتيان الرجال دون النساء، وأخبرهم أنه ما تقدمهم بهذه الفعلة الشنيعة أحد من الأمم السابقة؛ لأنها تخالف الفطر والعقول والشرائع.

﴿٢٩﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

وأنكر عليهم لوط إتيان الرجال وقطع الطريق على المسافرين بأفعالهم القبيحة، ويزاولون في مجالسهم أقبح الأفعال من السخرية ورجم المارة بالحجارة وكشف العورات والتكلم بالفحش مما يخالف الدين والمروءة، فلم يكن لقوم لوط جواب عليه إلا أن قالوا: جئنا بعذاب الله الذي توعدتنا به إن كنت صادقًا أن الله أرسلك إلينا، وأنك سوف تنجز ما توعدت به.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾

فدعا لوط على قومه وقال: يا ربِّ أسألك أن تنصرني بإنزال عقابك على من أفسد في الأرض بفعل الأعمال القبيحة من فاحشة ومنكر، فاستجاب الله دعاءه وأهلك قومه.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

ولما جاء الملائكةُ إبراهيمَ تبشره بإسحاق ابنًا نبيًا ومن بعد إسحاق ابنه يعقوب نبيًا أيضًا، وأخبرت الملائكة إبراهيم أن الله أمرهم بتدمير قرية قوم لوط وهي (سدوم)؛ لأن سكانها ظلموا أنفسهم بالشرك والأعمال المنكرة.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

قال إبراهيم للملائكة: كيف تهلكون هذه القرية وفيها نبي الله لوط وهو لا يستحق العذاب، فردت الملائكة بأن الله أطلعهم على من في القرية وهم يَعْلمون الصالحين من المفسدين، وسوف يُنَجُّون لوطًا وأهله المؤمنين من الهلاك الذي سوف يحل بالمفسدين، إلا امرأة لوط فإنها سوف تبقى مع قومه وتهلك معهم؛ لأنها وافقتهم في أعمالهم القبيحة.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

ولما جاءت الملائكة لوطًا ساءه مجيئهم؛ لأنه ظنهم من البشر، وهو يعرف خبث قومه وما يريدون من فعل القبيح، فقالت الملائكة للوط: لا تخف علينا فلن يصلوا إلينا، فالله يحمينا منهم، ولا تحزن من خبر إهلاكهم وتدمير قريتهم فسوف ينجيك الله من العذاب أنت وأهلك إلا امرأتك الهالكة مع قومك.

﴿٣٤﴾ ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾

إن الله سوف ينزل على قرية قوم لوط عذابًا من السماء، حيث يُمطرون بحجارة تمزقهم بسبب فعلهم القبيح وفاحشتهم المنكرة.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ولقد أبقى الله في قرية قوم لوط آثارًا واضحة وعلامات ظاهرة يُستدل بها على هلاكهم لمن تدبر آيات الله.

﴿٣٦﴾ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

وأرسل الله إلى مدين آخاهم النبي شعيبًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له، وأن يطلبوا بعملهم الثواب من عند الله في اليوم الآخر، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والمنكرات وعدم الإقامة على الذنب، وطالبهم بالتوبة النصوح وصدق الإنابة إلى الله.

﴿٣٧﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

فكذب أهل مدين نبيهم شعيبًا وردوا ما جاء به، فسلط الله عليهم زلزلة شديدة فدمرت ديارهم وأهلكتهم فصاروا في منازلهم صرعى هالكين.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾

وأهلك الله قوم عاد وقوم ثمود وقد ظهر للناس من آثار منازلهم وما فيها من خراب ما أوقع الله بهم من عقاب شديد، وقد حسَّن لهم إبليس فعلهم القبيح من الشرك والمعاصي فصدهم عن الهداية وعن عبادة الله - عز وجل - واتباع رسله - عليهم السلام -، وكانوا مستبصرين في غوايتهم معجبين بها مستحسنين لما يفعلون، يظنون أنهم على رشدٍ بينما هم في أشد ضلال وأكبر غواية.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾

وأهلك الله قارون وفرعون وهامان بسبب كفرهم وعلوهم في الأرض، ولقد جاء الجميعَ موسى بن عمران بالبراهين الساطعة والحجج الدالة على صدقه؛ فتكبروا على عباد الله بما عندهم من سلطان ومال، وأفسدوا في الأرض، وما كانوا فائتين الله بل كان مقتدرًا عليهم وهم في قبضته.

﴿٤٠﴾ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

والجميع أخذهم الله بسبب خطاياهم: فبعضهم أنزل الله عليه حجارة من طين منضود كقوم لوط، وبعضهم أهلكه الله بالصيحة كقوم صالح وشعيب، وبعضهم خسف الله به الأرض كقارون، وبعضهم أغرقه الله كقوم نوح وفرعون

وجنده، والله لن يعذبهم بذنوب غيرهم بل أهلكهم بذنوب عملوها، فهم ظلموا أنفسهم بالكفر وترك الشكر ومحاربة الله ورسله.

﴿٤١﴾ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾

صفة الذين عبدوا أصنامًا وأوثانًا من دون الله يرجون فيها النفع ودفع الضر مثل صفة العنكبوت التي بنت بيتًا ضعيفًا هشًا لتسكن فيه فلم ينفعها عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء الكفار ما نفعتهم معبوداتهم الباطلة من أوثان وأصنام من دون الله، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت، فإنه لا يستر من المطر، ولا ينفع وقت الخطر، ولا يصمد أمام الريح، وتقتل الأنثى فيه الذكر فلا يهنأ به. ولو كان يعلم هؤلاء الجهلاء بضعف آلهتهم ما عبدوها من دون الله.

﴿٤٢﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

إن الله يعلم بما يعبد الكفار من دونه من سائر الأنداد، ويعلم أن هذه الآلهة عاجزة لا تنفع ولا تضر، وهي أسماء مجردة لا تجلب خيرًا ولا تدفع شرًا، والله العزيز ينتقم ممن عصاه ويذل من عاداه ويعز من والاه، وهو الحكيم في تدبيره وصنعه وفي حكمه وشرعه.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾

وهذه الأمثال المذكورة يضربها الله للعباد لتكشف لهم حقائق الأمور، وينتفع بما فيها العالمون بالله وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿٤٤﴾ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

خلق الله السموات والأرض بالعدل والقسط لا للهو ولا للعب، إن في هذا الخلق العظيم دلالة واضحة وحجة قاطعة لمن صدق بكتاب الله وبرسوله ﷺ.

﴿٤٥﴾ ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾

اقرأ - أيها النبي - على الناس ما أوحاه الله إليك من هذا القرآن العظيم، واعمل به، وأقم الصلاة كما شرعها الله على أتم وجه، إن المحافظة على الصلاة بحدودها وآدابها تمنع صاحبها من اقتراف الخطايا والوقوع في الفواحش والمنكرات؛ لأن من أحسن أداءها عمَّر الله فؤاده بالإيمان، وأنار قلبه باليقين، فتزداد تقواه وينكسر شيطانه وتشرق نفسه، ويحب الفضيلة ويكره الرذيلة، وتموت شجرة الشر فيه، ولذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء سواه، أو إن إقامة ذكر الله في الصلاة أعظم من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، والله مطلع على ما يعمل العباد من حسن وسيء، وسوف يحاسبهم على ذلك بالثواب والعقاب.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

ولا تجادلوا - أيها المسلمون - اليهود والنصارى إلا بالقول اللين والخطاب الجميل والأسلوب الأمثل والرفق في الدعوة ليكبر الحق ويذعن للدليل، إلا من كابر وعاند وحاربكم ورفض الحوار والبرهان فله أسلوب آخر غير المجادلة من المجابهة والجهاد ونحو ذلك، كلٌ بحسبه، وقولوا - أيها المسلمون - لليهود والنصارى: نحن آمنا بالقرآن الذي

أُنزل على محمد ﷺ وبالتوراة التي نزلت على موسى - عليه السلام - وبالإنجيل الذي نزل على عيسى - عليه السلام -؛ والله وحده هو إلهنا وإلهكم لا شريك له، ولا رب سواه، ولا معبود بحق غيره لا يشبهه شيء في ذاته وأسمائه وصفاته، ونحن منقادون أذلاء لطاعته والعمل بشرعه واتباع رسوله ﷺ.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

ومثلما أنزلنا الكتب على من سبقك من الأنبياء - أيها الرسول - أنزلنا إليك هذا القرآن العظيم الذي صدق الكتب التي قبله، فالذين آتاهم الله التوراة من اليهود والإنجيل من النصارى فآمنوا بكتبهم وعملوا بها يؤمنون بالقرآن، ومن هؤلاء العرب الأميين من يصدق بما أنزل إليك، ولا يكذب بالقرآن أو يشك في حجته إلا مَنْ عادته التكذيب والجحود والعناد.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

وما كنت - أيها الرسول - قبل أن يُنزَّل عليك القرآن تقرأ كتابًا سابقًا ولم تكتب حرفًا بيمينك، بل كنت أميًا لا تقرأ ولا تكتب، وقومك يعلمون ذلك، ولو كنت تقرأ الكتب وتكتب الحروف قبل أن ينزل عليك القرآن لشك في ذلك الكفار وقالوا: أخذ ذلك من الكتب المتقدمة أو نقله منها كتابةً، فهذا من أعظم الأدلة على رسالتك.

﴿٤٩﴾ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

بل إن القرآن آيات بينات واضحات في دلالتها على الصدق وهدايتها للحق، وهذا القرآن يحفظه العلماء في صدورهم، أو أنه بيّن المعنى لهم، وما يكذب بالقرآن ويجحد آياته إلا كل ظالم متكبر جاحد معاند.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

وقال الكفار: هلاَّ أنزل الله على محمد آيات محسوسات مشاهدة بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى؟ قل لهم: إن هذه العلامات والآيات تحت مشيئة الله وفي تصرفه، إن شاء أنزلها وإن شاء منعها، وأنا عبد مرسل لأنذركم العذاب الشديد، وأوضح لكم الهدى من الضلال، ولا أستطيع أن آتي بالآيات من عندي.

﴿٥١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أو لم يكف الكفار علمًا بصدقك - أيها النبي المختار - أن الله أنزل عليك القرآن يُقرأ عليهم في كل آن؟ إن في إنزال القرآن على النبي لرحمة بمن آمن به واتبعه وعمل بما فيه وذكرى ينتفع بها من تدبرها وفقهها.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

قل - أيها النبي -: يكفي بيني وبينكم الله شاهدًا على صدقي في رسالتي، وشاهدًا على تكذيبكم لي وكفركم بما أرسلت به، وهو يعلم - سبحانه - كل أمر في السموات والأرض، فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، والذين صدقوا بالكفر والطاغوت وهم المشركون وكذبوا بما أنزل الله على رسوله ﷺ وكفروا بآياته هم الخاسرون في دنياهم وأخراهم؛ لأنهم حُرموا الثواب واستحقوا العقاب.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

ويستعجلك الكفار - أيها النبي - بالعذاب استهزاءً منهم واستبعادًا لنزوله، ولولا أن الله قدَّر لعذابهم زمنًا لا يتعداه لحل بهم العذاب حين سألوه، وسوف يأتيهم العذاب فجأة وعلى حين غرة وهم غافلون عنه لا يحسون بوقت وقوعه.

٥٤ ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

يستعجلك الكفار - أيها النبي - بالعذاب في الدنيا وهو نازل بهم، وإن عذاب النار لمحيط بهم ليس لهم منه فرار ولا هروب.

٥٥ ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يوم القيامة يغشى العذاب الكفار من فوق رؤوسهم ومن تحت أقدامهم؛ فالنار تحيط بهم من كل جهة، ويقول الله لهم ذاك اليوم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا؛ لأنهم كفروا بالله وعصوا رسوله، وحاربوا أولياءه.

٥٦ ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾

أيها العباد المؤمنون الصالحون: إذا ضاقت بكم أرض فلم تستطيعوا إظهار دينكم والقيام بعبادتكم فهاجروا إلى أرض أخرى؛ لتقيموا بها شعائر دينكم، فإن أرض الله واسعة، وأخلصوا العبادة لربكم.

٥٧ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

كتب الله على كل نفس حية أن تذوق الموت، وقضى على العباد أن مرجعهم إليه ليحاسبهم على ما فعلوا.

٥٨ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا بشرعه سوف ينزلهم الله في جنات النعيم في غرف عالية تجري من تحتها الأنهار، وهم باقون فيها أبدًا في نعيم مقيم وثواب عظيم، ونعم الجزاء لمن عمل بما يحبه الله وترك ما يكرهه واتبع رضوانه.

٥٩ ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

إن تلك الغرف العالية في جنات النعيم لمن صبروا على فعل الأوامر واجتناب النواهي ولزموا طاعة ربهم، وهم معتمدون على الله في كل شأن من شؤون حياتهم، ومفوضون إليه الأمر سبحانه.

٦٠ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

وكم من دابة من دواب الأرض لا تحفظ طعامها لغدها ولا تدخر رزقها كما يفعل الإنسان، ولكن الله يرزقها كما يرزق الناس، وهو السميع للأقوال العليم بالأفعال، سمع الأصوات وعلم النيات.

٦١ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

ولئن سألت الكفار - أيها النبي -: من الذي خلق السموات والأرض في إتقان عجيب وصنع بديع وذلل الشمس والقمر لمصالح العباد؟ فسوف يجيب الكفار: إن الذي خلق ذلك كله هو الله الواحد القهار، فكيف ينصرف هؤلاء الكفار عن عبادة الله إلى عبادة من سواه مع علمهم أنه الخالق الرازق المدبر وحده، فما أعجب كفرهم وافتراءهم على ربهم!

٦٢ ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

الله يوسع الرزق لمن أراد من عباده، ويضيق على من أراد؛ لمصلحة علمها - سبحانه - في خلقه، فلحكمة جليلة يعطي ويمنع، إن الله بكل شيء من أحوال العباد وشؤونهم عليم، مطلع عليها، لا تغيب عنه غائبة، وسع الخلق رحمة وعلمًا.

٦٣ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ولئن سألت الكفار - أيها النبي -: من الذي نزل من الغمام ماءً مباركًا فأنبت به من الأرض نباتًا أخضر بعد اليبس والقحط؟ فسوف يجيب الكفار بأن الذي نزل ذلك هو الله وحده، قل: الحمد لله الذي أظهر الحجة عليهم وألزمهم

بالرد على أنفسهم، بل أكثر الناس لا يعرفون ما ينفعهم ولا ما يضرهم، ولو عقل العباد ما لله من جلال وعظمة ما أشركوا به غيره جل في علاه.

٦٤ ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو للقلوب ولعب للأبدان؛ لما فيها من زخرف وفتنة وزينة وشهوة، فهي تشغل القلوب عن عبادة علام الغيوب، وتنسي الآخرة ببريقها الفتان، وإن الدار الآخرة لهي الحياة الحقيقية الدائمة لمن آمن بالله واتبع رسوله، فلا موت فيها ولا نصب ولا وصب ولا خوف ولا حزن، ولو علم الناس ذلك حق العلم ما قدموا العمل للدنيا على العمل للآخرة، ولما آثروا الفانية على الباقية.

٦٥ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

فإذا ركب الكفار السفن في البحر وأدركهم الغرق دعوا الله وحده وأخلصوا في المسألة، ونسوا آلهتهم المزعومة في حال الشدة، فلما نجاهم الله من البحر إلى البر وأنقذهم من الغرق، عادوا إلى الإشراك به - سبحانه -، فانظر كيف يعبدون الله في الشدة ويشركون به في الرخاء؛ فقبحًا لهم على تناقضهم.

٦٦ ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

ليكون عاقبة إنقاذ الله لهم من الغرق الكفر به - سبحانه - وبما أنعم عليهم به من الأموال والأولاد والصحة وغيرها، فليتمتعوا متاعًا قليلاً قصيرًا في هذه الدنيا، فسوف يظهر لهم قبح فعلهم وفساد عملهم وما هيأ الله لهم من عذاب أليم في نار جهنم.

٦٧ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾

أولم يبصر كفار مكة أن الله صيَّر مكة لهم حرمًا آمنًا يعصم بها الدم ويحفظ فيها المال، فالواحد منهم آمن على نفسه وماله، والناس في خارج الحرم من حولهم يُتخطفون بالقتل والأسر والنهب والسلب، وهم خائفون غير آمنين؟ أفبإشراكهم بالله والكفر بنعمه يؤمنون، وبنعمة الله عليهم في الحرم الآمن يكفرون ويجحدون فيعبدون معه آلهة أخرى؟!

٦٨ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

لا أحد في العالم أشد ظلمًا ممن كذب على الله فنسب إليه ما لا يليق به سبحانه من شريك وولد وزوجة، تعالى الله عن ذلك، ولا أحد أظلم ممن كذب بالحق الذي أُرسل به محمد ﷺ: إن في النار منزلاً ومستقرًا لمن كفر بالله وكذب رسوله ﷺ وحارب دينه وأولياءه .

٦٩ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يقسم الله - سبحانه - أن من جاهد في سبيله لإعلاء كلمته ونصر دينه وجاهد نفسه وشيطانه وهواه وصبر على الفتن والمغريات والأذى في سبيل الله فسوف يوفقه الله لطريق الهداية ويزيده رشدًا، ويشرح صدره للحق وينير قلبه بالإيمان، ومن فعل ذلك فقد أحسن غاية الإحسان في اعتقاده وعبادته، والله - سبحانه - مع من أحسن من العباد يحفظهم ويسددهم ويرعاهم ويتولاهم، وهي معية خاصة لأوليائه الأبرار.

مكية

سورة الروم

ترتيبها ٣٠ | آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة .

٢ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾

غلبتْ فارسُ الرومَ.

٣ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾

في أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، وسوف ينتصر الروم على الفرس قريبًا .

٤ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

وهذا النصر سوف يقع في سنوات لا تزيد على العشر ولا تنقص عن ثلاث، ولله وحده الأمر كله قبل انتصار فارس على الروم وبعد انتصار الروم على فارس، ويوم ينتصر الروم على فارس يفرح المؤمنون بهذا النصر؛ لأن الروم أهل كتاب وفارس وثنيون، فالروم أقرب إلى الحق.

٥ ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

والله سبحانه ينصر من يشاء من عباده ويخذل من شاء، وهو العزيز الذي عز فقهر وحكم فقدر، لا يعز من غالبه ولا ينتصر من حاربه، الرحيم بمن استرحمه من خلقه، وسعت رحمته كل شيء، وقد وقع ما وعد الله به، فانتصر الروم على فارس بعد سبع سنين، وفرح عباد الله المؤمنون بذلك.

٦ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

وعد الله عباده المؤمنين وعدًا أكيدًا بنصر الروم النصارى أهل الكتاب على الفرس الوثنيين، غير أن أكثر كفار قريش لا يعلمون أن ما وعد الله به عباده حق.

٧ ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾

والكفار إنما علمهم بظاهر الدنيا وزينتها وزخرفها، أما حقائق الآخرة وما أعد الله فيها من النعيم لأوليائه والعذاب لأعدائه فهم في غفلة عن ذلك، لا يتذكرونه ولا يفكرون فيه.

٨ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾

أولم يتفكر الكفار في خلق الله لهم بعد العدم وأنه سبحانه ما خلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات إلا لإقامة العدل والقسط وإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، ولتكون برهانًا على قدرته وألوهيته سبحانه، وأن مدة الحياة

الدنيا إلى أجل معلوم تنتهي إليه وهو يوم القيامة، وأكثر الناس جاحدون بيوم القيامة منكرون للقاء الله، لا يؤمنون بأن الله سوف يحاسبهم على أعمالهم؛ فهم في لهو ولعب.

﴿٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

أولم يذهب الكفار في أنحاء الأرض فينظروا نظر اعتبار وتأمل ويتفكروا كيف كان مصير الأقوام الذين سبقوهم ممن كذب الأنبياء وجحد الرسالات كعاد وثمود؟ وقد كان أولئك أعظم قوة وأقوى أجسامًا وأكثر على التمتع بلذائذ الحياة، حيث زرعوا أرضهم وشيدوا فيها الدور وبنوا فيها القصور أكثر من عمار أهل مكة لدنياهم فلم تنفع أولئك المكذبين عمارتهم لدورهم وزراعتهم لأرضهم وكثرة تمتعهم، وقد أتتهم أنبياؤهم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على ألوهية الله سبحانه وتعالى؛ فردوا ما جاءت به الرسل وكذبوهم وحاربوهم فأهلكهم الله ودمرهم، وما ظلمهم الله بذلك الإهلاك فهم مستحقون للعقاب، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب.

﴿١٠﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾

ثم كان مصير أهل الإجرام من الطغاة والمفسدين في الأرض أسوأ مصير وأقبح عاقبة؛ لأنهم كفروا بالله وسخروا من رسله وآياته فاستحقوا العقاب.

﴿١١﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الله وحده الذي أنشأ كل المخلوقات ولم يشاركه في الخلق أحد، وهو الذي يعيدها بعد الفناء لحالتها الأولى، وسوف يعود جميع الناس إليه يوم القيامة فيثيب الطائع ويعاقب العاصي .

﴿١٢﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

وإذا قامت القيامة وحان الحساب يئس الكفار من النجاة، وأيقنوا بالهلاك، فلا حجة لهم ولا عذر عندهم مقبول.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾

وليس للكفار شفعاء من آلهتهم المزعومة التي كانوا يشركون بها في الدنيا، بل إن هذه الآلهة تتبرأ إلى الله منهم، وهم إذا عاينوا العذاب تبرؤوا من آلهتهم؛ لأنه لا يشفع عند الله أحد إلا إذا أذِن سبحانه ورضي عن المشفوع له.

﴿١٤﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾

وإذا كان يوم القيامة يفترق المسلمون والكفار.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾

فمن آمن بالله واتبع رسوله ﷺ وعمل صالحًا فمصيره إلى جنات النعيم، يُنعمون فيها ويُكرمون ويُسرون.

﴿١٦﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾

وأما الكفار المكذبون بما أنزل الله على أنبيائه فقد كذبوا بيوم القيامة فهم مقيمون في عذاب النار لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم عذابها.

﴿١٧﴾ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

أيها المؤمنون: إذا أمسيتم وإذا أصبحتم فسبحوا ربكم وقدسوه ومجدوه ونزِّهوه عن الشرك وعن الزوجة والولد، وأثنوا عليه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأثبتوا له ما أثبت لنفسه من صفات الكمال والجلال.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾

فلله الثناء الحسن والحمد أوله وآخره، والشكر جميعه في جميع السموات والأرض، وفي آناء الليل وأطراف النهار.

(١٩) ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

الله يخرج الحي من الميت كالفرخ من البيضة، ويخرج الميت من الحي كالبيضة من الدجاجة، ويحيي الأرض بعد ما مات نبتها باليبس والقحط، ومثلما أحيا الله الأرض الميتة سوف يحييكم من قبوركم بعد موتكم ويخرجكم منها للحساب.

(٢٠) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الله وعظمته أنه خلق آدم أبا الخليقة من تراب، ثم تناسل ذريته من بعده وانتشروا في الأرض لطلب الرزق.

(٢١) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على عظمة الله وقدرته وجلاله واستحقاقه للعبودية أنه أوجد لكم من جنسكم - أيها الرجال - نساءً وجعلهن زوجات لكم تسكن نفوسكم إلى العيش معهن، وجعل سبحانه بين الرجل وزوجته محبة وشفقة، إن في إيجاد الله لذلك برهانًا ساطعًا على تفرد الله بالألوهية وعلى كمال القدرة لمن يتفكر في الآيات ويتدبر الأدلة.

(٢٢) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

ومن البراهين الظاهرة على قدرة الله الباهرة وعلى عظمته وكمال مجده: خلق السموات في هذا الجرم الهائل والبناء العجيب وارتفاعها على الأرض بغير عمد، ومن ذلك خلق الأرض وبسطها وجعلها فراشًا ومهادًا للخلق، ومن تلك البراهين اختلاف لغات الناس وتعدد لهجاتهم وتباين أشكالهم من بيض وحُمرٍ وسود، إن في هذه الأدلة لعبرةً لمن عنده علم نافع يوصله إلى فهم الحقائق ويبصره بأسرار الخلق.

(٢٣) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

ومن براهين قدرة الله وعظيم خلقه أنه سبحانه خلق النوم راحةً للعباد من الأعمال وقطعًا لهم عن الأشغال، فليس بحياة ولا موت، وكذلك خلقه سبحانه للنهار وجعله زمنًا لطلب الرزق والعمل والكدح، إن فيما ذُكر أدلة واضحة وبراهين ساطعة على عظيم قدرة الله وكمال مجده واستحقاقه للألوهية لمن يسمع العبر سماع استجابة وقبول وتدبر، وهو المنتفع .

(٢٤) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الباري سبحانه وحكمته في خلقه وقدرته على إنفاذ أمره أنه يُري عباده البرق فيخافون عندها من الصواعق ويطمعون في نزول المطر، وهو سبحانه ينزِّل من الغمام ماءً مباركًا فيحيي به الأرض بالنبات والزروع والثمار بعد القحط والجدب، إن في هذا لبرهانًا واضحًا على قدرة الله وحكمته وإتقانه لخلقه وبديع صنعه، ينتفع بهذا البرهان كل من عنده عقل يفكر به ويفقه عن الله حججه.

(٢٥) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الله ووحدانيته ثبات السموات والأرض وقيامهما واستقرارهما بأمر الله فلم تزولا ولم تسقطا، ثم إذا دعاكم الله إلى يوم الجزاء والحساب خرجتم من قبوركم مسرعين إلى عرصات القيامة.

(٢٦) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

والله وحده يملك كل من في السموات والأرض من المخلوقات؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم؛ فهو يتصرف فيهم ويدبرهم، والجميع خاضعون لجبروته منقادون لأمره.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

والله وحده الذي ينشئ الخلق من العدم ثم يعيده بعد الفناء، وإعادة الفاني إلى الحياة أهون على الله من الإنشاء من العدم، وكلاهما الإنشاء والإعادة هين على الله، وله -تبارك اسمه- الوصف الأعلى في كل ما يوصف به، فله من كل صفة أجلُّها وأعظمها وأرفعها، وهو العزيز الذي لا يغالب، قهر من حاربه وأذل من غالبه، الحكيم في خلقه وصنعه وفي حكمه وشرعه.

﴿٢٨﴾ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

ضرب الله مثلاً لكم - أيها الكفار - وهذا المثل من أنفسكم: هل لكم من العبيد والإماء من يشارككم في الرزق ويتساوون معكم فيه وأنتم تخافون منهم كخيفتكم من الأحرار الشركاء في مقاسمة الأموال؟ أنتم لا ترضون بذلك فكيف ترضون بذلك لله فتجعلون له من عباده شركاء في ربوبيته وألوهيته؟ وبمثل هذا المثل الواضح الجلي يبين الله البراهين الساطعة والحجج القاطعة لأهل الفطر القويمة والعقول السليمة.

﴿٢٩﴾ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

بل اتبع الكفار الهوى في شركهم بالله، فقلدوا الآباء بلا دليل، وفعلوا فعلهم جهلاً وضلالاً، ولا أحد يستطيع أن يرشد إلى الهداية ويوفق لها مَنْ كَتب اللهُ عليه الضلالة، وليس للكفار من أنصار يدفعون عنهم عذاب الواحد القهار.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

فأقم - أيها النبي - ومن معك من المؤمنين وجهك واتجاهك للدين الخالص الذي هو الإسلام مائلاً عن الشرك للتوحيد ومتبعًا ملة إبراهيم عليه السلام، فإن الإسلام هو الدين الذي فطر الله الناس عليه، لا يستطيع أحد أن يبدل خلق الله ودينه؛ لأنه الطريق المستقيم والنهج القويم الموصل إلى رضا الرحمن الرحيم وجنات النعيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، إن الذي أمرك الله به هو دين الإسلام وليس سواه من الأديان .

﴿٣١﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

وكونوا عائدين إلى الله بالتوبة من الذنوب وإخلاص العمل والصدق والطاعة مع تقوى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وأدوا الصلاة المشروعة على أكمل وجه، تامة الأركان والواجبات والشروط، ولا تكونوا مع من أشرك بالله غيره، بل كونوا موحدين مخلصين لله العبادة وحده.

﴿٣٢﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

ولا تكونوا من أهل الكفر والهوى والبدع الذين حرفوا دينهم وبدلوا كتابهم وسنة نبيهم ﷺ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وذلك وفق أهوائهم، وصاروا طوائف وجماعات مختلفة متنازعة يتشيعون لقادتهم ويتعصبون لآرائهم ويتعاونون على الإثم والعدوان، كل جماعة بما عندها من المذاهب فرحة مسرورة، تحسب أن الحق معها وحدها وأن ما سواه على الباطل.

﴿٣٣﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾

ومن طبيعة الناس أنهم إذا أصابتهم شدة ومحنة وبلاء تضرعوا إلى الله مخلصين له في الدعاء؛ ليرفع عنهم الشدة، فإذا رحمهم الله وكشف عنهم البلاء إذا طائفة منهم يشركون به غيره في العبادة وينسون ما أنعم الله به عليهم من كشف البلاء.

٣٤ ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

ليكفروا بما تفضل الله به عليهم ورحمهم من رفع الشدة، فليتمتع الكفار في هذه الدار باللذائذ الفانية والشهوات الزائلة، فسوف يعلمون يوم القيامة سوء ما فعلوه إذا أبصروا العذاب.

٣٥ ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾

أم أنزل الله على هؤلاء الكفار برهانًا ساطعًا ودليلاً قاطعًا يؤيدهم على شركهم ويشهد بصحة كفرهم؟

٣٦ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾

وإذا أذاق الله الناس نعمة من رزق وصحة وعافية ورخاء فرحوا بذلك فرح بطرٍ وأشرٍ وعلو وكِبْر لا فرح شكر، وإذا أصابت الناس ابتلاءات من فقر ومرض وجوع وخوف وشدة بسبب آثامهم وسيئاتهم أيسوا من زوال الشدة، وهذه عادة أكثر الناس في حالة الشدة والرخاء.

٣٧ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أو لا يعلم الناس أن الله يوسع الرزق لمن أراد من العباد ابتلاءً له ليرى هل يشكر أم يكفر؟ ويضيق الله الرزق على من أراد من العباد ابتلاءً له ليرى هل يصبر أم يجزع؟ إن في توسيع الرزق وفي تضييقه على الناس لأدلة واضحة لأهل الإيمان على حكمة الله واطلاعه ورحمته بعباده .

٣٨ ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

فأعط القريب ما يستحقه من الصلة والصدقة والبر، وأعط الفقير والمحتاج الذي انقطع به السبيل من الزكاة والصدقة، فإن هذا العطاء لوجه الله خيرٌ وثواب عظيم لمن قصد بذلك وجه الله، ومن عمل هذه الأعمال الصالحة وسواها من أعمال البر فهم الذين أدركوا المطلوب من نيل رضوان الله والفوز بجناته والنجاة من غضبه وعذابه.

٣٩ ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

وما أعطيتم – أيها الناس – من قرض تريدون به الربا ليزيد ذلك القرض وينمو في أموال الناس فإنه لا يزيد عند الله، بل يذهب الله بركته ويمحقه، وما أعطيتم – أيها الناس – من زكاة وصدقة لمن يستحق ذلك تريدون وجه الله بذلك والأجر من عنده فهذا هو العمل المتقبل المضاعف عند الله أضعافًا كثيرة، فالصدقة نماءٌ وبركة، والربا محقٌ وخسارة.

٤٠ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

الله وحده هو الذي خلقكم – أيها العباد – من العدم ثم رزقكم بأنواع النعم، ثم يميتكم بعد استكمال الآجال، ثم يبعثكم من القبور إلى عرصات القيامة للحساب، فهل أحدٌ من شركائكم الذين تشركون بهم مع الله من يفعل هذه الأفعال من الخلق والرزق والإماتة والإحياء؟ تنزه الله وتقدس وتعالى عن شرك من أشرك به لا إله إلا هو.

٤١ ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ظهر الفساد في البر والبحر كالقحط والمرض والأوبئة والفقر والجوع والمصائب والكوارث بسبب ذنوب الناس؛ ليبتليهم الله بأسباب ذنوبهم التي اقترفوها كي يعودوا إلى ربهم بالتوبة النصوح، ويجتنبوا الآثام والذنوب، فتدوم عليهم النعمة وتُصرف عنهم النقمة، ويصلح الحال، ويطيب المآل.

٤٢ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾

قل – أيها النبي – للكفار: اذهبوا في الأرض وسافروا في أنحائها وانظروا نظر تأمل واعتبار، وتفكروا كيف كان مصير من كذب من الأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود، تجدوا آثار الهلاك والدمار الذي حلَّ بهم لما كفروا بالله وكذبوا رسله.

﴿٤٣﴾ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

فوجِّه وجهك جهة الصراط المستقيم والدين القويم وهو دين الإسلام؛ عاملاً بما أمر الله به، تاركًا ما نهى الله عنه، وتمسك بهذا الدين قبل يوم الحساب الذي لا يستطيع أحدٌ أن يمنع وقوعه، حينها يتفرق الناس أشتاتًا مختلفين؛ ليروا أعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿٤٤﴾ ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

من كفر بالله فهو يتحمل وحده وبال كفره وعاقبة تكذيبه، ومن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحة المشروعة فقد هيأ لنفسه بعمله منزلا في الجنة ومقعد صدق فيها.

﴿٤٥﴾ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ليثيب الله المؤمنين الصالحين أحسن ثواب؛ رحمةً منه وإحسانًا، إن الله لا يحب من كفر به وكذب رسله، بل يسخط ويغضب عليه.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على ألوهية الله وعظمته وقدرته إرساله -سبحانه- الريح أمام المطر تبشر بنزول الغيث وتثير السحاب؛ فيستبشر بذلك العباد، ويذوقوا رحمة ربهم بإنزال الماء الزلال المبارك من السماء فيحيي به العباد والبلاد، ولتبحر السفن في البحر بقدرة الله ومشيئته؛ ليطلب التجار رزقهم على ظهورها ذهابًا وإيابًا، فتحملهم وبضائعهم؛ رجاء أن يشكر العباد ربهم ويوحدوه ويخلصوا له العبادة.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولقد أرسل الله من قبل الرسول ﷺ رسلاً إلى أقوامهم يبشرونهم برحمة الله إن آمنوا وينذرونه عذابه إن كفروا ويدعون للتوحيد وينهون عن الشرك، فجاؤوهم بالأدلة القاطعة والحجج الساطعة، فكثير من أقوامهم كفروا، وما آمن إلا القليل، فانتقم الله من المكذبين، وأهلك الكافرين، ونصر عباده الموحدين، ونصْرُ أوليائه -سبحانه- حق عليه لما لهم من منزلة وزلفى.

﴿٤٨﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

الله سبحانه وحده هو الذي يرسل الرياح فتثير الغمام المحمل بالماء فينشره الله في السماء مثلما أراد ويصيره قطعًا متفرقة، فترى الماء يخرج من بين الغمام، فإذا ساق الله السحاب بالرياح إلى من يشاء من الناس استبشروا وفرحوا بقدوم الغيث.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾

وإن كان العباد قبل نزول الماء من الغمام في يأس من الرحمة وقنوط من نزول الغيث، لطول احتباسه عنهم، فإن الله يأتي بالفرج وينزل المطر.

﴿٥٠﴾ ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

فتأمل - أيها المتدبر - باعتبار، وتفكر في آثار الغيث في الأرض المخضرة والحدائق الغناء والبساتين الفيحاء، كيف أحيا الله بالماء الأرض بعد الجدب والقحط فأصبحت معشبة مخضرة؟ إن الذي أحيا الأرض بالنبات بعد موتها قادر على إحياء الناس من قبورهم بعد موتهم؛ لأن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا يتمنع عليه أمر.

٥١ ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾
ولئن أرسل الله ريحًا على النبات الأخضر والزروع والثمار فأفسدتها فشاهدوها بعد الخضرة مصفرة لمكثوا من بعد مشاهدة هذا المنظر على كفرهم بالله، فلا يردعهم هذا الأمر المشاهد عن الكفر.

٥٢ ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾
فإنك - أيها النبي - لا تُسمعَ المواعظَ من أمات الله قلبه، ولا تُسمعُ النصائحَ من سد أذنه عن سماع الحكمة، فلا تحزن على كفرهم ولا تجزع على عدم استجابتهم لك، فإنهم كالصم، والموتى لا يسمعون ولا يفقهون، فحضورهم كالغياب، وحياتهم كالموت، قد أعرضوا عن الاستجابة وأدبروا عن الهدى.

٥٣ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾
وما أنت بمرشد من طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته عن الحق، وأنت لا تسمع دعوتك سماع قبول واستجابة إلا من آمن بالقرآن واستسلم للرحمن وأذعن للبرهان.

٥٤ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾
الله وحده هو الذي خلقكم - أيها الناس - من ماء مهين ضعيف وهو النطفة فلا تتكبروا، ثم صيَّر من بعد ضعف الطفولة قوة الرجولة، ثم جعل من بعد قوة الرجولة ضعف الشيخوخة والهرم، يخلق الله ما يشاء من ضعف وقوة وطفولة وشباب وكهولة وهرم، وهو العليم بالخلق، القادر على كل شيء، فبالعلم أحكم الله ما خلق، وبالقدرة نفذ الله ما شاء .

٥٥ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾
الدنيا غير زمن يسير كالساعة من الوقت، وقد كذبوا في هذا الحلف كما كذبوا على الله في الدنيا ومثلما أنكروا ما أتت به الأنبياء.

٥٦ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
وقال العلماء المؤمنون بالله العاملون بعلمهم المتقون لربهم للمكذبين المنكرين: لقد بقيتم فيما كتب الله مما سبق في علمه من يوم خُلقتم إلى أن بُعثتم فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم لا تعلمون بصدق ذلك، فكذبتم به وأنكرتموه في الدنيا حتى وقع.

٥٧ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾
فيوم القيامة لا تنفع الكفار الأعذار ولا يطلب منهم إرضاء الله بالعبادة والتوبة والاستجابة؛ لأنه فات الأوان وهذا زمن عقابهم وتعذيبهم.

٥٨ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾
ولقد بيَّن الله للعباد في هذا القرآن من كل مثل لإقامة الدليل على قدرته وألوهيته ووحدانيته، ولئن أتيت الكفار - أيها النبي - بأي دليل وبأي برهان يدل على صحة رسالتك لقال الكفار: ما أنت يا محمد ومن معك من المؤمنين إلا مفترون فيما ادعيتم من النبوة.

٥٩ ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
ومثل ذلك الختم الذي ختمه الله على قلوب الكفار يختمه سبحانه على قلوب الذين لا يعلمون حقائق القرآن ورسالة الرسول ﷺ، فلا ينتفعون بعظة ولا يستفيدون من آية.

٦٠ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾
فعليك بالصبر - أيها النبي - على أذى الكفار وتكذيب الفجار، إن وعد ربك الذي وعدك به من النصر والتأييد والتمكين وحسن العاقبة واقع لا محالة، فلا يستفزنك عن الحق الذي أنت عليه من لا يؤمن بيوم القيامة، ولا يوقن بالبعث ولا يصدق بيوم الدين.

مكية

سورة لقمان

ترتيبها ٣١ | آياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

٢ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

هذه آيات القرآن التي أحكمها الله وفصلها وبينها للناس.

٣ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾

وآيات القرآن هدى للمؤمنين ترشدهم إلى الحق وتدلهم على الخير، وهي رحمة لمن أحسن في عمله بتقوى ربه واتباع رسوله ﷺ.

٤ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

هؤلاء المحسنون يؤدون الصلاة على أكمل وجه كما شرعها الله، ويعطون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم لمستحقيها، وهم يصدقون أكمل التصديق بيوم الدين وما فيه من حساب وجزاء.

٥ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

هؤلاء الأبرار أهل الصفات السابقة الكريمة على هدى وبيان من الله ونور من الحق الذي عندهم، وهم الذين فازوا بمطلوبهم ونجوا من عذاب ربهم.

٦ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

وبعض الناس يشتري لهو الحديث وهو كل ما ألهى عن طريق الهداية والرشد، ويسخر من آيات الله لكفره وفجوره، فله عند ربه عذاب خزي وهوان وذل يقابل كِبْرَه وعناده.

٧ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وإذا قُرأت آيات القرآن على هذا المجرم أدبر وهو متكبر معاندٌ لا يقبل الحق ولا يصغي إلى الرشد كأنه ما سمع شيئًا، وكأن في سمعه صممًا عن دعوة الحق قد عطَّل حواسه عن الانتفاع بها، ومن هذا وصفه فبشره - أيها النبي - بعذاب شديد موجع في نار جهنم.

٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾

إن المؤمنين الصالحين وهم كل من عمل بما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله، أولئك لهم جنات النعيم بجوار رب رحيم في مقعد كريم.

﴿٩﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

وهم باقون في الجنة ما دامت السموات والأرض في نعيم لا يحول ولا يزول، وعدٌ من الله صادق سوف ينجزه لهم، وهو سبحانه لا يخلف إذا وعد، فلا أصدق منه قيلاً ولا أوفى منه وعدًا، وهو عزيز يقهر من غالبه ويذل من حاربه، حكيم في تدبيره وصنعه وحكمه وشرعه.

﴿١٠﴾ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾

والله خلق السموات ورفعها عن الأرض بغير عمدٍ كما يبصرها الناس، وأرسى في الأرض جبالاً راسخة تحفظ توازن الأرض لئلا تميل وتهتز فيختل توازنها، ونشر الله في الأرض أنواع الحيوان وأصناف الدواب، وأنزل الله من الغمام ماءً عذبًا مباركًا فأنبت به الأرض بعد القحط والجدب، وجعل فيها من كل زوج بيهج في منظره، يختلف في لونه وطعمه من أشكال النباتات وأنواع الشجر وسائر الثمار.

﴿١١﴾ ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

وكل ما تبصرونه - أيها الناس - هو من خلق الله لا من خلق غيره، فأروني - أيها الكفار - ماذا خلق غيره - سبحانه - من الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله؟ بل الكفار في غيٍّ وسفه وفي بُعدٍ عن الرشد والصواب؛ لأنهم تركوا الهداية وسلكوا طريق الغواية.

﴿١٢﴾ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾

ولقد أعطى الله العبد الصالح المنيب لقمان الفقه في الدين، والسداد في الرأي، والصواب في القول، وأمره سبحانه أن يشكر نعمه بالعمل بطاعته وترك معصيته، ومن يفعل ذلك فإنما ينفع نفسه وتعود فائدة ذلك إليه، فإن الله غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، ومن جحد النعم وكفر بالمنعم فإنَّ الله غني عن عبادته، له الثناء الجميل والحمد كله على كل حال، وهو غني عمن كفر ويشكر من عباده من شكر.

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾

واذكر يوم وصى لقمان ابنه ناصحًا له فنهاه عن الشرك بالله وأخبره أن الشرك أعظم الذنوب وأشنع الخطايا وأقبح السيئات.

﴿١٤﴾ ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

وأوجب الله على الإنسان برَّ والديه والإحسان إليهما فإن أمه حملت به في حالة ضعف على ضعف؛ لشدة المشقة وكثرة الآلام، وحمل الطفل وفطامه عن الرضاع في مدة عامين، وأوجب الله عليه أن يشكر ربه بالعمل بطاعته، ويشكر لوالديه بالبر والإحسان، إلى الله المعاد فيجازي كل العباد بما فعلوا من صلاح وفساد.

﴿١٥﴾ ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

وإن حاول والداك - أيها الإنسان - وحرصا على أن تكفر بالله وتشرك به غيره، أو أمراك بالمعصية فلا طاعة لهما في ذلك، إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا يحملك عصيان أمرهما على الإساءة إليهما، بل أحسن إليهما الصحبة وتلطف بهما، واقتد بمن تاب إلى ربه من ذنبه وعاد من خطئه ورجع إلى مولاه بالعمل بطاعته وترك معصيته، فإن بعد الحياة المعاد إلى الله والرجوع إليه؛ ليخبر كلاً بفعله ويجازيه على عمله.

(١٦) ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

ثم يقول لقمان في نصيحته لابنه: يا بني: لو كانت السيئة والحسنة في صغرها قدر حبة خردل في وسط حجر أو في أي موضع في السموات والأرض فإنها لا تغيب عن علم الله، وسوف يأتي بها يوم القيامة؛ ليجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والله لطيف بعباده يوصل لهم المحاب ويدفع عنهم المكاره بألطف الوسائل، وهو خبير -سبحانه- لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة.

(١٧) ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

وأمر لقمان ابنه بإقامة الصلاة على أكمل وجه كما شُرعت؛ لأنها عمود الدين والناهية عن الفحشاء والمنكر، وأمره بأن يأمر بالمعروف؛ وهو كل خير ورشد دلَّ النقل والعقل على استحسانه، وأوصاه بأن ينهى عن المنكر؛ وهو كل ما نهت عنه الشرائع الحكيمة والفطر القويمة لكن بلطف ورفق وحكمة ولين، وإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فتحمل ما يصيبك من الناس من أذية، فإن هذا طريق الأنبياء والرسل، والقيام بهذه الأعمال الصالحة من الأمور التي ينبغي أن يحرص عليها الإنسان ويعزم على فعلها، فإنها من أشرف المنازل وأجل المراتب.

(١٨) ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾

ولا تحوّل وجهك عن الناس احتقارًا لهم وتكبرًا عليهم، بل ابسط لهم وجهك وتبسم لهم، وألن جانبك لعباد الله، ولا تمش في الأرض مشية الخيلاء والتكبر والتبختر، فإن الله لا يحب كل مختال بقلبه فخور بلسانه، تعجبه نفسه فيتعاظم على الناس، بل يحب -سبحانه- المتواضع القريب من عباده.

(١٩) ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾

وتواضع إذا مشيت فلا تمش مشية الخيلاء والكبر، واخفض من صوتك إذا تكلمت، فإن هذا من حسن الأدب وتمام العقل، إن أبشع الأصوات وأشنعها وأقبحها صوت الحمير، فلا تشابه أصواتها برفع صوتك لغير حاجة.

(٢٠) ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾

ألم تروا - أيها العباد - أن الله ذلل لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وكواكب وسحاب وغير ذلك، وذلل لكم ما في الأرض من حيوان ونبات وماءٍ وغير ذلك، وشملكم بأياديه الجليلة ونعمه الكثيرة من عافية وصحة وولد ومال وأمن ونعم ظاهرة في الأبدان والجوارح، وباطنة في القلوب والعقول، وبعض الناس يجادل في عبودية الله وأسمائه وصفاته وإخلاص الطاعة له بغير برهان صحيح ولا حجة واضحة ولا بيان ولا كتاب يسند دعواه ويقوي قوله.

(٢١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وإذا قيل لهؤلاء الكفار الذين يجادلون بالباطل في عبودية الله: اتبعوا ما أنزله الله في كتابه على رسوله ﷺ واهتدوا بذلك، ردوا معترضين وقالوا: لا، بل نتبع ما سبقنا عليه الآباء والأجداد من الشرك وعبادة الأصنام، كيف يفعلون ذلك حتى ولو كان الشيطان يحسن لهم قبح أفعالهم وشركهم بربهم ويدعوهم بتزيينه إلى نار جهنم الموقدة المحرقة للكفار.

(٢٢) ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾

ومن يخلص طاعته لربه ويفرده بالألوهية وقد أحسن في أقواله وأجاد في أعماله وأصلح من أحواله فقد التزم أوثق سبب واعتصم بأعظم وسيلة موصلة إلى رضوان الله ورحمته، وإلى الله وحده تعود كل القضايا وتنتهي كل الأمور ويرجع إليه كل الناس، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

٢٣ ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ومن كفر برسالتك - أيها النبي - وكذب دعوتك فلا تأسف عليه ولا تحزن من فعله؛ لأنك أديت الرسالة وبلغت الأمانة ونصحت الأمة وإلى الله معاد من كفر به فيخبره بأفعاله القبيحة التي فعلها في الدنيا، ثم يعاقبه عليها في نار جهنم، إن الله مطلع على ما تكنه الصدور وتخفيه الضمائر، لا تخفى عليه خافية.

٢٤ ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾

يمتع الله الكفار في هذه الحياة الدنيا الزائلة القصيرة كما يمتع الأنعام، ثم يوم الحساب يلجئهم ويسوقهم إلى عذاب النار الموجع المؤلم.

٢٥ ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

ولئن سألت - أيها النبي - الكفار عن خالق السموات والأرض، لقالوا لك: إنه الله وحده، فقامت عليهم الحجة بألسنتهم، فالخالق أولى أن يُعبد وحده، فقل لهم حينها: الحمد لله الذي أظهر الحجة عليكم من قولكم، بل أكثر الكفار لا يفكرون من الذي يستحق الحمد على نعمه والشكر على عطائه بتوحيده وعبوديته؛ ولذلك أشركوا به غيره.

٢٦ ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾

لله وحده كل ما خلق في السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وتصريفًا وملكًا وتقديرًا، فهو المعبود بحق لا إله إلا هو ولا رب سواه، وهو -سبحانه- غني عن خلقه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ولا يحتاج إلى أحد، وله الثناء الجميل والشكر الجزيل والحمد أوله وآخره في كل مكان وزمان وعلى كل حال.

٢٧ ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

ولو أن الأشجار التي في الأرض صارت أقلامًا وتحول البحر إلى حبر ويمده سبعة أبحر غيره، وكُتبت كلمات الله بتلك الأقلام وذاك الحبر لفنيت الأقلام وانتهى الحبر ولم تنته كلمات الله المباركة العظيمة التي لا يحصيها أحد ولا يحيط بها بشر، إن الله عزيز في ملكه، يذل من عاداه ويعز من والاه، حكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله على وجه يليق بجلاله تقدست أسماؤه.

٢٨ ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾

ما خلقكم - أيها البشر - ولا إحياؤكم بعد الموت على الله إلا مثل خلق نفس واحدة وبعثها في السهولة واليسر، إن الله يسمع كل الأقوال ويبصر كل الأعمال، ويعلم كل الأحوال، وسوف يحاسب الخلق على كل هذا.

٢٩ ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾

ألم تر أن الله يدخل الليل في النهار فتطول ساعات الليل وتقصر ساعات النهار، ويدخل النهار في الليل فتطول ساعات النهار وتقصر ساعات الليل، وذلل الشمس والقمر لمصالح العباد، ليسعى كلٌّ في مساره ويجري في مداره إلى وقت محدد لا يتعداه، وأن الله عالمٌ بأفعال البشر من حسن وسيئ لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء.

٣٠ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾

ذلك الخلق العظيم والآيات الباهرة جعلها الله لتعلموا أن الله وحده هو الحق في ألوهيته وذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأن ما يعبده الكفار من دون الله باطلٌ مختلق، وأن الله هو العلي علو قدرٍ وعلو قهر عالٍ في ذاته، فهو مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله، عالٍ في أسمائه وصفاته جل اسمه، وهو الكبير على كل شيء، فمن هذه صفاته فهو أحق أن يُعبد وأن يُوحَّد.

٣١ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

ألم تشاهد - أيها الإنسان - كيف أن السفن تسعى في البحر بتقدير من الله وتسخير؛ نعمةً من الله ورحمةً بعباده ليسافروا عليها ويطلبوا عليها الرزق؛ ولتظهر للناس البراهين الدالة على قدرة الله وعظمته؟ إن في سعي السفن على ظهر البحر لدليلاً قاطعًا وبرهانًا ساطعًا على عظمة الله وتفرده لكل من صبر على أداء الطاعة واجتناب المعصية وصبر على أقدار الله وشكر الله على نعمه.

٣٢ ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

وإذا ركب الكفار السفن وارتفعت الأمواج فوقهم كأنها الغمام والجبال وأصاب الناس الفزع والهلع والخوف من الهلاك حينها يلتجئون إلى الله ويخلصون له في الدعاء، فإذا أخرجهم سالمين إلى بر الأمان فبعضهم المقتصد في عبادته الذي لم يشكر الله حق شكره الشكر التام، فهو موحد مقصر، ومنهم الكافر بنعم الله المشرك في عبوديته، وما يكذب بآيات الله ويكفر بدينه إلا كل غدّار فاجر ينقض العهد وينكث العقد ويخلف الوعد ويجحد النعم وينسى الإحسان.

٣٣ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

يا أيها الناس: اتقوا ربكم بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، واحذروا شر يوم مستطير هو يوم القيامة، يوم لا يغني فيه الوالد عن الولد ولا المولود عن الوالد، فلا قرابة تنفع، ولا وليٌّ يشفع، ولا ناصر يدفع، إنما وعدكم الله به من قيام الساعة حق لا شك فيه، فلا تنخدعوا بالحياة وغرورها وزخرفها. فإنها باطل مضمحل ومتاع قليل، ولا يخدعنكم بربكم خادع من شياطين الإنس والجن فيصرفوكم عن الهداية إلى الغواية .

٣٤ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ۖ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

إن الله وحده لا سواه هو العالم متى تقوم القيامة، وهو الذي ينزل الماء من الغمام لا يفعل ذلك غيره، وهو وحده الذي يعلم ما في أرحام الحوامل، ويعلم ما تكسبه كل نفسٍ وتفعله في غدها وهي لا تعلم ذلك، ويعلم سبحانه بأي أرض تموت كل نفس وهي لا تعلم ذلك، إن الله عليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة، علم الظاهر والباطن والسر والعلن، تقدست أسماؤه.

مكية

سورة السجدة

آياتها ٣٠

ترتيبها ٣٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿ الٓمٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا القرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ لا شك أنه وحي من عند الله رب العالمين

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

بل يقول الكفار: إن محمدًا ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه وليس وحيًا من الله، كذبوا فيما زعموا، بل القرآن وحي منزَّل من الله أتى به الروح الأمين على الرسول الكريم ﷺ؛ ليخوف به أناسًا ما سبق أن أرسل إليهم رسول من قبل محمد ﷺ لعلهم يهتدون إلى الإيمان ويسلمون وينقادون للحق.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

الله وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في مدة ستة أيام؛ لحكمة علمها الله، وهو قادر أن يخلقها بكلمة (كن)، وبعدما خلقها علا وارتفع على عرشه استواءً يليق بجلاله بلا تكييف ولا تشبيه، ليس للعباد من ولي يدبر أمورهم ويصرِّف شؤونهم غير الله، وليس لهم شفيع يشفع لهم عند الله فيرفع عنهم العذاب إلا بإذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له، أفلا تتدبرون في الآيات وتتعظون بالنصائح وتؤمنون بالله وحده وتخلصون له الطاعة؟

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

يدبر الله تعالى أمر الكائنات من السماء إلى الأرض ثم يصعد ذلك الأمر والتدبير إلى الله تعالى في مدة يوم، مقدار هذا اليوم ألف سنة من أيام الدنيا التي يعدها الناس.

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ذلك هو الله الخالق المتصرف في الكون، العالم بكل ما غاب عن العيون، المطلع على ما تُكِنه الضمائر وتخفيه السرائر، والعالم بما تراه العيون، وهو العزيز في ملكه وحكمه، يذل من غالبه ويخذل من حاربه، الرحيم بعباده، حيث أمهلهم ودعاهم إلى التوبة.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾

الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأحسن في صنعه وأنشأ خلق آدم أبي البشر من طين.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

ثم خلق ذرية آدم يتكاثرون من المني الضعيف الرقيق المهين.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ثم أكمل خلق الإنسان وقواه وأحسن صورته ونفخ فيه من روحه بإرسال الملك له ينفخ فيه الروح، وخلق لكم - أيها البشر - الأسماع والأبصار والأفئدة، وهي نعم جليلة تدركون بها الصوت واللون والأشياء والعلوم والمعارف، وتميزون بها بين النافع والضار والحسن والقبيح، ولكن شكركم قليل على هذه النعم، وقليل منكم من يستعملها في طاعة الله.

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾

فقال الكفار المنكرون للحياة بعد الموت: أإذا تحولت أجسامنا إلى تراب في القبور أنبعث خلقًا جديدًا؟! منكرين هذا الأمر مستبعدين وقوعه، فهم لا يطلبون البرهان على ذلك لكنهم مكذبون معاندون.

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: يقبض أرواحكم ملك الموت الذي وكَّله الله بذلك عند انتهاء أعماركم بلا تقديم ولا تأخير، ثم تعودون يوم القيامة إلى ربكم فيحاسبكم على أعمالكم للطائع الثواب وللعاصي العقاب.

١٢ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

ولو تشاهد يوم القيامة المجرمين منكري الحساب قد خضعوا برؤوسهم أذلاء خائفين غشيهم الخزي والمهانة والعار يقولون: ربنا أبصرنا سوء أعمالنا، وسمعنا منك الحق الذي كان يدعونا إليه الأنبياء، وقد علمنا خطأنا، وها نحن تبنا إليك، فأعدنا إلى حياتنا الدنيا نتزود بالصالحات، إنا قد علمنا علم اليقين الآن أنا كنا كافرين بدينك مكذبين برسولك وبالبعث بعد الموت، فلو شاهدت ذلك الأمر يوم العرض الأكبر، لشاهدت أمرًا مهولاً وخطبًا عظيمًا.

١٣ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

ولو شاء الله لهدى هؤلاء الكفار للحق ووفقهم للإيمان، ولكن الله سبق منه قول الحق وأوجب وقوعه ليملأنَ النار من عصاة الجن والإنس؛ لأنهم آثروا الباطل على الحق.

١٤ ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يُقال للكفار يوم القيامة عند دخولهم جهنم: تذوقوا العذاب بسبب غفلتكم عن الحساب والجزاء، واشتغالكم بشهوات الدنيا الفانية، إن الله قد تركك في عذاب جهنم لا يخرجكم منها ولا يخفف عنكم من عذابها، وتذوقوا عذاب النار الباقي عليكم أبدًا بسبب أعمالكم القبيحة من كفر وتكذيب وظلم.

١٥ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

إنما يصدق بآيات الله في كتابه ويتبعها الذين إذا أُنذروا بها ونُصحوا أو قُرِئت عليهم سجدوا لربهم أذلاء خائفين مخبتين، وسبحوا بحمد الله في السجود، ولم يتكبروا عن السجود لله وعبادته والتذلل له وحده لا شريك له.

١٦ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

تتجافى جنوب هؤلاء الأبرار عن فرشهم في حالة نومهم خوفًا من ربهم، فلم يناموا نوم المنافق الذي هو جيفة هامدة، وإنما يتهجدون في صلاة الليل ويذكرون الله كثيرًا، ويسألون الله أن يصرف عنهم العذاب وهم خائفون، ويطلبون منه الثواب وهم يرجون ذلك، ويتصدقون في سبيل الله مما أعطاهم الله من الأموال والرزق الحلال.

١٧ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

فلا تتطلع نفس ولا تعلم ما أعده الله لهؤلاء الأبرار في جنات النعيم من رزق كريم في جوار ربٍ رحيم مع قرة العين وبهجة النفس وانشراح الصدر في عافية وأمان، ثوابًا لهم على إيمانهم وتقواهم.

١٨ ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

أفمن كان تقيًا مؤمنًا بالله متبعًا لرسوله ﷺ مصدقًا بوعد الله ووعيده، فهل حاله كحال من كذب رسول الله ﷺ وكفر بما أنزل الله وخرج عن طاعة الله.

١٩ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

أما المؤمنون الصالحون الأتقياء فمصيرهم إلى جنات النعيم، يؤون إليها ويُنعمون فيها، لهم فيها وفادةٌ كريمة؛ ضيافةً لهم وثوابًا على ما قدموه في الدنيا من عمل صالح مقبول.

٢٠ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾

وأما من عصى الله وخرج عن طاعته وخالف رسوله ﷺ فمصيرهم إلى النار، كلما حاولوا أن يخرجوا منها أعادهم الله فيها، وقيل لهم - تأنيبًا وتبكيتًا -: تذوقوا عذاب جهنم الذي كذبتم به في الحياة الدنيا.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وليذيقنَّ الله الكفار من عذاب الدنيا الأقرب من المصائب والكوارث والفتن والزلازل والمحن وأنواع الأسقام والآلام قبل العذاب الأكبر في نار جهنم؛ لعلهم يراجعون أنفسهم بالتوبة إلى الله من كفرهم وتكذيبهم ويُنيبوا إليه بالطاعة وإخلاص العبادة.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

لا أحد أظلم ممن وُعظ بآيات الله المنزَّلة على رسوله ﷺ ثم هجرها وأعرض عنها ولم يؤمن بها ولم يعمل بها، إن الله منتقم من أعدائه المجرمين الفجرة بالعذاب الشديد.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

ولقد أنزل الله التوراة على موسى كما أنزل القرآن على محمد ﷺ، فلا تكن - أيها النبي - في شك من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج، وقد جعل الله التوراة هدايةً وبيانًا لبني إسرائيل تدعوهم إلى الهدى وتدلهم على الخير.

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾

وجعل الله من بني إسرائيل هداةً ودعاةً إلى الحق وقادةً إلى الخير يقتدي بهم الناس في البر والإحسان ويدعون إلى طاعة الله والصلاح والاستقامة بسبب أنهم صبروا على أداء الطاعات وترك المخالفات، وكانوا يوقنون بآيات الله وبراهينه، ويصدقون بها أتم التصديق، فبالصبر قاوموا الشهوات، وباليقين قاوموا الشبهات، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

إن ربك - أيها النبي - يحكم بين المؤمنين والكفار من اليهود وغيرهم من الأمم يوم القيامة بالعدل فيما وقع فيه الخلاف في الشرائع والأديان فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

﴿٢٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾

أولم يتبين لهؤلاء الكفار: كم أهلك الله من الأقوام السابقة، وهؤلاء الكفار يمشون في مساكن أولئك المكذبين بعدما دُمِّرت فيرون آثارهم ويسمعون أخبارهم كقوم هود وصالح ولوط؟ إن في هذا الهلاك والتدمير وبقاء الآثار لبراهين واضحة يستدلّ بها على صدق الأنبياء وما جاؤوا به من عند الله وعلى قبح عمل الكفار، أفلا يسمع الكفار براهين الواحد القهار التي أنزلها على الرسل الأبرار؟

﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾

أولم يشاهد الكفار الذين كذبوا بالحياة بعد الموت أن الله يسوق الماء إلى الأرض الجدباء المقفرة فيخرج بالماء زرعًا أخضر يأكل منه الناس والدواب وهو غذاء للحيوان والأبدان؟ فلماذا لم يتفكروا في قدرة وعظمة من هذا فعله، وأن من فعل ذلك - سبحانه - قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

يستعجل الكفار بيوم القيامة، فيقولون - مستبعدين لذلك - متى هذا الحكم الذي يفصل الله به بين المؤمنين والكفار على زعمكم - أيها المسلمون - إن كنتم صادقين فيما تقولون؟

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

قل لهم - أيها النبي -: لا ينفعكم في يوم الفصل والحكم بين الناس الإيمان بالله ورسوله ﷺ؛ لأنه قد فات الأوان، ولا تُؤخرون ساعة واحدة لاستدراك ما فات بالتوبة والإنابة فالوقت وقت حساب لا عمل.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾

فأعرض - أيها الرسول - عن الكفار وما عليك من كفرهم، ولا تبال وانتظر ما سوف يقع بهم، إن الكفار ينتظرون بالمؤمنين ويتربصون بهم دوائر السوء.

مدنية

سورة الأحزاب

ترتيبها ٣٣ | آياتها ٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

يا أيها النبي، الزم تقوى الله بالعمل بما يحبه ويرضاه وترك ما يكرهه، والأمر للرسول ﷺ أمر لأمته، ولا تطع الكافرين وأهل النفاق في ترك شيء من الدين أو مداهنتهم، إن الله يعلم كل شيء، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، حكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه.

﴿٢﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

واتبع - أيها الرسول - ما أوحاه الله إليك من كتاب وسنة، إن الله مطلع على عمل كل عامل وسوف يحاسبه عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿٣﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

واعتمد على الله في أمورك وفوِّض الأمر إليه، وحسبك بالله حافظًا لمن اعتمد عليه وناصرًا لمن استنصر به، فهو نعم المولى ونعم الوكيل.

﴿٤﴾ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾

ما جعل الله لأحد من الناس من قلبين في صدره فيحب بهذا ويبغض بهذا، وما جعل الله نساءكم اللاتي تظاهرون منهن في التحريم كحرمة أمهاتكم، والظهار أن يقول الرجل لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي. وهذا من عمل الجاهلية، فإن الزوجة لا تصير أمًا بحالٍ من الأحوال، وما جعل الله الأبناء المتبنين مثل الأبناء من النسب الصحيح، فالظهار والتبني لا صحة لهما في التحريم الأبدي، فالمرأة المظاهر منها ليست كالأم في الحرمة، والابن المتبنى ليس كالابن الشرعي، والظهار والتبني إنما هما مجرد كلام باللسان لا حقيقة لهما ولا يُعتد بهما، والله -سبحانه- يقول الحق ويحكم به ويعلِّم عباده ويدلهم على العدل في الأقوال والأعمال.

﴿٥﴾ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

انسبوا الأبناء إلى الآباء ولا تخلطوا في الأنساب، هذا هو الأعدل والأصوب عند الله، فإن كنتم لا تعلمون الآباء الحقيقيين للأبناء فنادوهم بالأخوة الدينية التي اجتمعتم تحت رابطتها، فإنهم إخوان وموالٍ في الدين، وليس عليكم ذنب إذا حصل منكم خطأ لم تتعمده قلوبكم، إنما يؤاخذكم الله بالعمد لا بالخطأ، والله يغفر للمخطئ غير المتعمد ويرحم التائب غير المصر.

٦ ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾

النبي الكريم محمد ﷺ أولى بالمؤمنين وأقرب لهم من أنفسهم في مسائل الدين والدنيا، وزوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين في الحرمة، فيحرم نكاح نساء الرسول ﷺ من بعده، وذوو القرابة من المسلمين أولى بالميراث بعضهم من بعض من الإرث بالإيمان والهجرة وكان هذا في أول الإسلام ثم نُسخ، فالتوارث بالنسب هو المشروع لا بالأخوة في الدين، إلا إذا أراد المسلمون أن يفعلوا خيرًا إلى غير الورثة من صدقة وصلة وبر وإحسان ووصية، وهذا الحكم الذي شرعه الله كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ، فامتثلوا أمر الله بالعمل بما شرع. وفي الآية: أنه يجب على المسلم أن يحب الرسول ﷺ أكثر من نفسه، ويجب عليه اتباعه في كل ما شرع واحترام زوجاته ﷺ وعدم التعرض لهن بالأذى، ومن فعل ذلك فعليه الغضب واللعنة .

٧ ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم أخذ الله من النبيين العهد الوثيق على تبليغ الرسالة، وأخذ الله الميثاق منك - أيها النبي - ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وأخذ الله منهم عهدًا وثيقًا بأن يبلغوا رسالته ويؤدوا أمانته ولا يكتموا شيئًا مما أُمروا بتبليغه وبعضهم يصدق بعضًا في دعوته.

٨ ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾

وقد أخذ الله ذلك العهد من الأنبياء؛ ليسأل الله المرسلين عن جواب أقوامهم لهم فيثيب من آمن بدخول الجنة ويعذب من كفر بنار جهنم .

٩ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

أيها المؤمنون: تذكروا فضل الله عليكم يوم غزوة الأحزاب حين تحزَّب عليكم أهل الكفر من المشركين واليهود والمنافقين وأحاطوا بكم من كل جانب، فأرسل الله على معسكرهم ريحًا شديدة عاصفة اقتلعت خيامهم ورمت قدورهم وحثت التراب في وجوههم، وأرسل الله ملائكة من السماء لم تبصروهم، وأنزل الله الرعب في قلوب الكفار فلاذوا بالفرار وعادوا بالخيبة والخسار، وكان الله بما تعملون بصيرًا مطلعًا على أحوالكم لا تغيب عنه من أموركم غائبة.

١٠ ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾

تذكروا يوم جاءكم الكفار من أعلى الوادي من ناحية الشرق ومن أسفل الوادي من ناحية الغرب فشخصت أبصاركم من الذهول والحيرة والدهشة، ووصلت قلوبكم إلى حناجركم من كثرة الهول وشدة الرعب، وغلب القنوط على أهل النفاق، وكثرت الشكوك، وتظنون بالله ما لا ينبغي له - سبحانه - من أنه لا ينصر رسوله ﷺ ولن يعلي دينه.

١١ ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾

في ذاك المقام العسير امُتحنَ أهل الإيمان ومُحِّص المسلمون، وبان الصادق من الكاذب، وحلَّت بالمسلمين نازلة هائلة اضطربت لها القلوب ووجلت لها الأنفس؛ ليزداد أهل الإيمان إيمانًا ويعظم يقينهم وثقتهم بربهم.

١٢ ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾

في ذاك اليوم قال المنافقون وأهل الريبة والشك: إن الذي وعدنا الله ورسوله ﷺ به من النصر والعزة والغلبة لا حقيقة له بل خداع لا يُصدق.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

وتذكر قول جماعة من أهل النفاق يوم نادوا في أهل المدينة: يا أهل يثرب - وهو اسم المدينة السابق - لماذا تقيمون في معركة خاسرة؛ فعودوا إلى بيوتكم في داخل المدينة، وجماعة من المنافقين تستأذن الرسول ﷺ بالعودة إلى بيوتهم بحجة أنها غير آمنة وليست محصنة، فيخافون على أهلهم وذراريهم فيها، والصحيح أن هذا كذب، ومقصودهم الهروب من الجهاد وترك الرسول ﷺ وأصحابه.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾

ولو دخل الكفار من أهل الأحزاب المدينة من نواحيها، ثم طُلب من المنافقين الكفر بالله والردة عن الإسلام لأجابوا إلى ذلك وأسرعوا في هذا الأمر وما تأخروا عن اعتناق الكفر إلا زمنًا قليلاً.

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

وسبق لهؤلاء المنافقين أنهم أعطوا الله العهد والميثاق أن لا يهربوا من ساحة المعركة ولا يتركوا القتال في سبيل الله، ولكنهم خانوا الميثاق ونقضوا العهد، وسوف يسألهم الله عن هذا العهد، فإن عهد الله يحاسب عليه، فيُثاب من وفى ويُعاقب من نقض.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قل - أيها النبي - للمنافقين: لا يفيدكم الهروب من القتال خوفًا من الموت أو القتل، فإن ذلك الهروب لا يزيد في أعماركم ولا يؤخر الموت عنكم، وإن هربتم من الموت فلن تبقوا في هذه الحياة الدنيا إلا زمنًا يسيرًا وهو الزمن الذي قُدِّر لكم فيه الحياة، فلابد من الموت إذن فموتوا مؤمنين شرفاء لا منافقين جبناء.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

قل - أيها النبي للمنافقين -: من الذي يحميكم من الله، ويمنعكم من عذابه إن أراد بكم عذابًا أو أراد بكم ثوابًا، فإنه وحده الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع؟ ولا يجد المنافقون من دون الله من يتولى أمورهم ولا من ينصرهم ولا من يدفع عنهم العذاب.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

إن الله يعلم المثبطين عن القتال في سبيله الذين يقولون لإخوانهم: أقبلوا إلينا وكونوا معنا واتركوا الرسول ﷺ وأصحابه فلا تقاتلوا معهم فإنا نخشى عليكم القتل والأسر، وهم مع تخذيلهم لإخوانهم لا يقاتلون إلا نادرًا سمعةً ورياءً وخوفًا من انكشاف أمرهم.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

بخلاء على الرسول ﷺ وأصحابه بالمال والنفس والمحبة والموالاة والنصيحة؛ لما في نفوسهم من النفاق والمرض، يحبون حياة الذل ويكرهون موت الشرف، فإذا حضر الجهاد خافوا من الموت ورأيتهم من شدة الهلع والجزع تدور عيونهم من الحيرة والاضطراب؛ خائفين من القتال كحالة من حضره الموت فعيناه تدوران لهول ما وقع به، فإذا انتهى القتال وذهب الفزع أخذوا يسبُّونكم بألسنة حادة مؤذية كالسكاكين، وهم عند قسمة الغنائم بخلاء حسدة يمنعون الخير ولا يحبونه لغيرهم، فهم لم يدخل الإيمان قلوبهم فأذهب الله أجورهم بسبب نفاقهم، والانتقام منهم، وتعذيبهم سهل على الله سبحانه.

﴿٢٠﴾ ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يظن المنافقون أن الأحزاب الذين أذلَّهم الله وأخزاهم لم يغادروا المدينة من شدة رعب المنافقين وخورهم، ولو رجع الأحزاب مرة ثانية إلى المدينة لقتال المؤمنين لتمنى المنافقون أنهم كانوا غائبين عن القتال في أعراب البادية يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان من مكان بعيد، ولو كان المنافقون معكم - أيها المؤمنون - في ساح الجهاد ما شاركوا في القتال إلا قليلاً؛ لشدة ما أصابهم من الرعب والذل والخور.

﴿٢١﴾ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في رسول الله ﷺ قدوة صالحة وأسوة حسنة تلزمون سنته، وتمتثلون أمره، وتجتنبون نهيه، وتحكمون شريعته في حياتكم، وتقتدون بأقواله وأفعاله وأحواله في كل شأن من شؤونكم، ولا يتبع الرسول ﷺ ويهتدي بهداه ويستن بسنته إلا من كان يرجو ثواب الله ويتهيأ ليوم القيامة بعمل صالح فأكثر من ذكر الله؛ ليبرأ من النفاق، ويسلم من مرض القلوب؛ فعلامة المؤمن الصادق الناصح اتباعه ﷺ ولزوم سنته، بخلاف المنافق مريض القلب فإنه يكره السنة وأهلها.

﴿٢٢﴾ ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

ولما أبصر المؤمنون الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة علموا أن وعد الله بالنصر قد دنا، وقالوا: هذا الذي سبق أن وعدنا الله به ورسوله ﷺ من الابتلاء والتمحيص ثم النصر والتمكين فقد أنجز الله ما وعد، وصدق رسوله ﷺ فيما أخبر، وما زادتهم معاينة الأحزاب إلا تصديقًا لموعود الله وتسليمًا بقضائه ورضًا بحكمه وانقيادًا لأمره.

﴿٢٣﴾ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

من المؤمنين رجال أوفوا بعهودهم مع ربهم -تعالى- فأخلصوا له الطاعة وجاهدوا في سبيله وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس، فبعضهم وفَّى بنذره فاستشهد في سبيل الله، ومنهم من ينتظر إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة، وما غيروا العهد ولا أخلفوا الوعد كما فعل المنافقون، بل ثبتوا وصدقوا.

﴿٢٤﴾ ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ليأجر الله أهل الصدق على صدقهم في أقوالهم وأعمالهم، ويعذب المنافقين على كذبهم وخداعهم إن شاء معاقبتهم بأن لا يهديهم إلى الإيمان فيموتوا على النفاق ويدخلوا النار، إن الله يغفر خطايا من أسرف على نفسه إذا تاب وأناب، ويرحم من عاد إليه مقرًا بذنبه معترفًا بخطئه.

﴿٢٥﴾ ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

ورد الله الكفار عن المدينة يجرُّون أذيال الخيبة والخزي والهزيمة ولم ينالوا خيرًا من النصرة والغنيمة أو الأجر والثواب في الآخرة، وكفى الله المؤمنين القتال بالأسباب التي قدرها كهبوب الريح العاتية ونزول ملائكة السماء، وكان الله قويًا يذل من حاربه، ويخذل من غالبه، عزيزًا في ملكه وجبروته سبحانه.

﴿٢٦﴾ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

وأنزل الله يهود بني قريظة من حصونهم؛ لأنهم أعانوا الكفار على قتال المؤمنين، وأنزل في قلوبهم الهلع فانهزموا خائبين، يقتل المؤمنون طائفة منهم ويأسرون طائفة أخرى.

﴿٢٧﴾ ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

وسلطكم - أيها المسلمون - على دورهم ومزارعهم وأموالهم كالسلاح والدواب، وسلطكم على أرض لم تفتحوها من قبل لامتناعها بأهلها وكثرة حصونها، وكان الله على كل شيء قديرًا لا يعجزه ما أراد ولا يفوته أمر.

﴿٢٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

يا أيها النبي: قل لنسائك اللاتي طلبن منك زيادة النفقة: إن كان مقصودكن الحياة الدنيا وزخرفها ومظاهرها فاقبلن ما أعطيكن مما أستطيع من متاع الدنيا، وأُفارقكن فراقًا بإحسان لا ضرر فيه ولا أذى.

﴿٢٩﴾ ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

وإن كان مقصودكن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وما عند الله من ثواب في دار النعيم المقيم، فعليكن بالصبر على حالكن معي والقناعة والرضا بما قسم الله، فإن الله هيأ للمحسنات منكن الأجر الكبير والثواب العظيم، فاخترن طاعة الله ورسوله وما عنده من ثواب على زينة الدنيا، فرضي الله عنهن وأرضاهن.

﴿٣٠﴾ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾

يا نساء النبي، من يأت منكن بذنب كبير ظاهر يضاعف الله لها العذاب مرتين بالنسبة إلى غيرها من النساء؛ لأن الله شرَّفهنّ وأكرمهنَّ بالمنزلة العظيمة والمرتبة الكريمة بأن جعلهن زوجات لسيد الخلق ﷺ، وكان هذا التغليظ في العقوبة حمايةً لبيت الرسول ﷺ، وكان ذلك العقاب على الله سهلاً إذا أراد وقوعه.

﴿٣١﴾ ﴿ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴾

ومن تخلص لربها العبادة وتتبع رسوله ﷺ وتلتزم أوامر الشريعة يكرمها الله على عملها مثلي أجر غيرها من سائر النساء، وهيأ الله لها رزقًا هنيئًا مباركًا في جنات النعيم.

﴿٣٢﴾ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾

يا نساء النبي: لستن في الفضل والمرتبة كسائر النساء؛ فإن الله أكرمكن بكونكن نساء سيد ولد آدم ﷺ، فإن كنتن تخفن الله وتراقبنه فلا تتكلمن مع الرجل الأجنبي بصوت رقيق لين يغري من في قلبه شهوة وفجور، وهذا الأمر يعم كل امرأة مسلمة، وإذا تكلمتن فتكلمن بكلام لا ريبة فيه ولا مخالفة للشريعة، فليس بالقول اللين ولا اللفظ الغليظ.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾

والزمن بيوتكن ففيها الستر والعفاف، ولا تخرجن منها إلا لحاجة، ولا تظهرن المفاتن والمحاسن كفعل نساء الجاهلية قبل الإسلام من عدم الاحتشام وترك الحجاب، وقد شابهت نساء الجاهلية في عصرنا هذا من خرجت على تعاليم الدين وأصبحت كاسيةً عارية، سافرة متبرجة، خلعت جلباب الحياء فانسلخت من حجاب التقوى، وعليكن بأداء الصلاة على أكمل وجه كما شُرعت، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتصدقن طهرةً للنفس والمال، وعليكن بطاعة الله وطاعة رسوله بفعل الأوامر واجتناب النواهي، إنما أوجب الله عليكن هذه التعاليم ليزكيكن وليصونكن من المعاصي وأوضار الذنوب وجميع المعائب يا أهل بيت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، والله يريد أن يطهر نفوسكن تمام الطهارة؛ ليكون بيته ﷺ أزكى وأطهر وأشرف بيت في العالم؛ لأنه إمام الناس في الخير.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

واذكرن ما يُقرأ عليكن ويتنزل في بيوت الرسول ﷺ من القرآن الكريم والسنة المطهرة وذلك بالعمل بأوامر الشرع واجتناب نواهيه، فاشكرن الله على هذا المجد العظيم والشرف الكبير، وذلك بتقواه -سبحانه وتعالى- ولزوم طاعته، إن الله كان لطيفًا بكن إذ اختاركن لرسوله الكريم ﷺ، خبيرًا -سبحانه- بهذا الاختيار؛ لأنه يعلم -سبحانه- أين يجعل كرامته.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

إن الخاضعين والطائعين لشرع الله والخاضعات الطائعات، والمؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر والمؤمنات، والمطيعين لله ولرسوله والمطيعات، والصادقين في أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم والصادقات، والصابرين على الطاعات وعن المحرمات وعلى المكاره والصابرات، والخائفين من عذاب الله وغضبه والخائفات، والمتصدقين بالواجب والمستحب والمتصدقات، والصائمين فرضًا ونفلاً والصائمات، والحافظين فروجهم عن الحرام والحافظات، والذاكرين الله كثيرًا بقلوبهم وألسنتهم والذاكرات، أعد لهم الله في الآخرة مغفرة لذنوبهم وثوابًا على طاعتهم لا يقدر قدره إلا الله من النعيم المقيم والأجر العظيم في جوار رب كريم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾

ولا يحل لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله فيهم حكمًا أن يخالفوه بأن يختاروا غير حكم الله، بل يرضون، ويسلمون، ومن يخالف أمر الله ورسوله فقد أخطأ خطأً بيّنًا وخالف الرشد وجانب الصواب.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾

وإذ تقول - أيها النبي - لمن تفضل الله عليه بالإسلام، وهو زيد بن حارثة الذي أعتقه النبي ﷺ وتبناه وتفضلت عليه بالعتق -: أمسك امرأتك زينب بنت جحش ولا تفارقها واتق الله يا زيد؛ وتخفي - أيها النبيُّ - في نفسك - ما أخبرك الله به من طلاق زيد لامرأته وزواجك منها، والله تعالى معلن ما أسررت، وتخاف أن يقول الناس: تزوج النبي امرأة من نسبه إلى نفسه بالتبني، والله أولى أن تخافه، فلما قضى زيد من زينب حاجته وفارقها وانتهت عدتها زوج الله زينب بنت جحش من رسول الله ﷺ؛ لتكون سنة متبعة في إبطال تحريم النكاح بامرأة المُتَبنى بعد فراقها، ولا يكون على المؤمنين ذنب وخطيئة في أن ينكحوا نساء من كانوا يتبنونهم بعد فراقهن إذا قضوا من نسائهم حاجتهم، وكان أمر الله مفعولاً فهو نافذ لا يمنعه مانع ولا يعيقه عائق.

﴿٣٨﴾ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾

ما كان على النبي ﷺ من إثم فيما أباح الله له من نكاحه بامرأة من تبناه بعد فراقها كما أحل الله ذلك للرسل قبله، وقد أباحه الله في الشرائع السابقة، وكان أمر الله مقدرًا لابد من حصوله؛ لأنه لا راد لما أراد.

﴿٣٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾

والأجر والثواب لمن بلَّغ رسالة الله إلى عباده ودعا إلى ربه ونصح الأمة وخاف الله وحده ولم يخف أحدًا سواه، وكفى بالله محاسبًا للناس على جميع أفعالهم، وهو الرقيب على كل أعمالهم.

﴿٤٠﴾ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

ما كان الرسول ﷺ أبًا لواحد منكم حتى يُمنع من نكاح امرأة ابنه من النسب إذا طلقها، ولكن محمدًا ﷺ شرفه الله وأعلى قدره بأن جعله رسولاً وخاتمًا للأنبياء فلا نبي بعده، وكان الله عليمًا بكل ما تعملونه لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

﴿٤١﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾

أيها المؤمنون الصادقون: أكثروا من ذكر الله بألسنتكم وقلوبكم وكافة جوارحكم، واملؤوا به ليلكم ونهاركم، فإن الذكر أفضل عمل بعد الفرائض.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾

وأكثروا من ذكر الله في أول النهار وآخره، إذا أصبحتم وإذا أمسيتم، والزموا ذكره عند كل مناسبة، فبذكر الله تسبقون غيركم وتنالون رحمة ربكم وتدركون أرفع المنازل عند مولاكم.

﴿٤٣﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾

والله - سبحانه - المستحق أن يُذكر وحده؛ لأنه يرحمكم ويثني عليكم في الملإ الأعلى وتستغفر لكم الملائكة؛ ليخرجكم بالإسلام من ظلمة الجاهلية إلى نور الحق الذي بُعث به الرسول ﷺ، وكان الله بالمؤمنين رحيمًا في الدنيا والآخرة، يتوب على من تاب، ويرحم من أناب، ولا يعاجلهم بالعقاب.

﴿٤٤﴾ ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴾

تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم في جنات النعيم سلام، ولهم الأمن من العقاب والفوز بالثواب، وقد هيأ لهم نعيمًا مقيمًا وأجرًا جزيلاً في جنات النعيم.

﴿٤٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾

يا أيها النبي، إن الله أرسلك شاهدًا على أمتك لتبليغ الرسالة إليهم، ومبشرًا لمن آمن منهم بالجنة ونذيرًا لمن عصى بالنار.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾

وداعيًا بأمر الله إلى إخلاص العبادة لله وتوحيده وعدم الإشراك به، وسراجًا منيرًا لمن اتبعك، تهديه في ظلمات الضلال إلى الطريق المستقيم، ورسالتك واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا ينكرها إلا جاحد ولا يكذبها إلا معاند.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾

وبشر - أيها النبي - المؤمنين بأن لهم عند الله الثواب الجزيل والأجر العظيم في جنات النعيم.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾

ولا تطع - أيها النبي - قول الكفار والمنافقين في ترك شيء من دعوتك، واترك أذاهم ولا يحملك أذاهم على ترك شيء من الرسالة، واعتمد على الله وثق به وكل الأمر إليه، فإن الله كافيك ما تخاف، ناصرك على عدوك، وتوكل عليه في كل شأن من شؤونك.

﴿٤٩﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

أيها المؤمنون: إذا عقدتم على النساء ولم تدخلوا بهن ثم فارقتموهن من قبل الجماع فليس لكم عليهن عدةٌ تحسبونها لهن، فأعطوهن متعةً على حسب أحوالكم تجبر الخاطر وتمحو التقصير، وفارقوهن مع الستر وعدم ذكر العيوب، ولا تصدر منكم أذية لهن.

٥٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

يا أيها النبي: إن الله أباح لك الزواج من اللاتي أعطيتهن مهورهن، وأباح لك ملك اليمين من الإماء مما تفضل الله به عليك، وأباح لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك من مكة إلى المدينة، وأباح لك امرأة مؤمنة منحتك نفسها دون مهر إن كنت ترغب في النكاح منها خاصة بك، وليس لأحد غيرك أن ينكح امرأة بالهبة، قد علم الله ما أوجب على المؤمنين في نسائهم وإمائهم في ألاّ يتزوجوا إلا أربعة نسوة وما شاؤوا من الإماء مع وجوب الولي والمهر والشهود، ولكن الله رخص لك - أيها النبي - في ذلك وجعل في الأمر سعة لك وحدك لئلا تتحرج من الزواج بما ذُكر من هذه الأصناف، وكان الله كثير الغفران لذنوب عباده، رحيمًا بمن تاب منهم وأناب. واسع التفضل والإحسان عليهم.

٥١ ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴾

تؤجل من تشاء من زوجاتك في قسمها من المبيت، وتضم إليك من تشاء من زوجاتك، وإذا رغبت فيمن أجّلت قسمها من زوجاتك فلا حرج عليك في ذلك، وذلك التخيير أدعى إلى سرورهن وعدم حزنهن ورضاهن بقسمتك بينهن، والله يعلم بما في قلوب الرجال من حب زائد لبعض الزوجات دون بعض، وكان الله عليمًا بما في القلوب والضمائر، حليمًا لا يؤاخذ العصاة حتى يعرض لهم التوبة، ولا يعاجل بالعقوبة حتى يقيم الحجة.

٥٢ ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾

لا يُباح لك - أيها النبي - أن تتزوج فوق ما عندك من النساء، ومن كانت زوجة لك مما سبق ذكره من النساء فلا يجوز لك فراقها واستبدال غيرها بها ولو أعجبك جمالها، وأما ما ملكته يمينك من الإماء فالأمر واسع فالاستبدال والفراق، وكان الله على كل شيء رقيبًا، يعلم الخفيات ويطلع على النيات ولا يعزب عن علمه شيء من الكائنات.

٥٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾

يا أيها المؤمنون الطائعون لربهم المتبعون لرسوله ﷺ، لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ حتى يأذن لكم لتناول الطعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا أذن لكم فادخلوا البيت، فإذا تناولتم الطعام فاذهبوا غير مستمعين لحديث النبي ﷺ وأهله، فإن انتظاركم للطعام وتنصتكم للحديث يؤذي النبي ﷺ ويضايقه فيستحي ﷺ أن يأمركم بالخروج من بيته، ومن حقه أن يفعل، ولكنه لكريم شمائله لم يقابلكم بذلك، والله لا يستحيي من توضيح الحق وإظهاره وبيانه، وإذا طلبتم من زوجات النبي ﷺ حاجةً من أواني المنزل ونحوها فاطلبوها من وراء ستر؛ بُعدًا عن الريبة وسلامة العرض، فهذا أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الواردات التي تقع في نفوس الرجال ونفوس النساء، فالحجاب طريق العفاف والحشمة ووسيلة للطهارة والرؤية سبب للفتنة، ولا يجوز لكم أن تؤذوا النبي ﷺ، ولا يجوز لكم أن تتزوجوا نساءه

عليه الصلاة والسلام من بعد وفاته على التأبيد؛ لأنهن أمهات للمؤمنين، ولا يجوز للرجل أن يتزوج أمه، إن أذيتكم للنبي ﷺ أو الزواج من نسائه بعده إثمٌ عظيم وجُرم كبير عند الله عز وجل.

٥٤ ﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

إن تظهروا أمرًا من الأمور - أيها الناس - بأقوالكم مما فيه أذية للنبي ﷺ أو تخفوه في قلوبكم فإن الله يعلم ما خفي وما ظهر وما أُسر وما أُعلن، وسيجزي كلاً بما فعل.

٥٥ ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾

ليس على النساء ذنب في عدم التستر من الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات والنساء المؤمنات والموالي من ملك اليمين؛ لشدة الحاجة إلى الموالي في الخدمة، وراقبن الله - أيتهن النساء - في العمل بطاعته واجتناب معصيته، واحذرن من السفور والتبرج والخلوة بالأجنبي وإبداء الزينة والتعرض للفتنة، إن الله كان على كل شيء شهيدًا، يشهد على أعمال العباد يوم المعاد بما فعلوه من صلاح وفساد.

٥٦ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

إن الله يثني على رسوله ﷺ في الملأ الأعلى وينوه بذكره عند الملائكة المقربين، وملائكته الأبرار يثنون على النبي المختار ويدعون له، يا أيها المؤمنون: أكثروا من الصلاة والسلام عليه ﷺ في كل وقت وآن ما تعاقب الليل والنهار وما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وأكمل صلاة وأتمها عليه ﷺ هي: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

٥٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

إن الذين يؤذون الله بالكفر والسب ونسبة الولد والزوجة إليه والإشراك به ووصفه بالنقائص تعالى الله عن ذلك وتقدس وتبارك وتنزَّه، والذين يؤذون الرسول ﷺ بالتكذيب والمحاربة والاستهزاء وردِّ شيء من سنته والسخرية من شرعه أبعدهم الله من رحمته، وطردهم من جنته، وحلَّ عليهم غضبه، ووقع عليهم سخطه في الدنيا والآخرة، وأعد لهم في النار عذابَ الخزي والهوان والعار.

٥٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالسب والشتم والظلم والأذى بأنواعه من غير جُرم فعلوه فقد قالوا أعظم الكذب وأفحش الزور وأتوا بجُرم قبيح يستحقون عليه العذاب والنكال.

٥٩ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يا أيها النبي: مر نساءك وبناتك وزوجات المؤمنين أن يرخين على رؤوسهن ووجوههن من الملاحف والأردية والحجاب حتى تُستر الرؤوس والوجوه والصدور، وفي هذا ترجيح تغطية وجه المرأة المسلمة، ذلك أقرب أن يميزن بالحجاب والعفاف والستر والصون فلا يتعرض لهن سفيه بأذى ولا مضايقة، وكان الله كثير الغفران لمن أساء واستغفر من ذنبه، واسع الرحمة بما بيَّن لعباده من شريعة.

٦٠ ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لئن لم يرتدع المنافقون ومرضى القلوب وأهل الشائعات الباطلة وأصحاب الأخبار الكاذبة في مدينة الرسول ﷺ عن أذاهم وفجورهم ومحاربتهم للحق ليسلِّطنَّك الله عليهم - أيها النبي - ثم لا يبقون معك في المدينة إلا وقتًا يسيرًا.

﴿٦١﴾ ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾

طرد الله المنافقين من رحمته وحرمهم جنته، في أي محل كانوا فإنهم يؤسرون ويُقتلون تقتيلاً؛ لأنهم أعداء لله ولرسوله ﷺ، ومحاربون للملة، وهم أهل فتنة وفساد.

﴿٦٢﴾ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

سنة الله وطريقته المثلى الدائمة في الأقوام السابقين من أهل الكفر والتكذيب أنهم يُؤسرون ويُقتلون في أي مكان كانوا، ولن تجد لطريقة الله في شرعه وخلقه تحويلاً ولا تغيرًا بل هي دائمة ثابتة مستقرة؛ لأنها صدرت عن علم وحكمة.

﴿٦٣﴾ ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

يسألك الناس - أيها النبي - عن وقت القيامة مستبعدين وقوعها، قل لهم: إن علم الساعة مما استأثر الله به، لا يعلم وقت قيامها إلا الله وحده، وما يدريك - أيها النبي - لعل وقت قيامها دنا فكل آت قريب، وكل ما وعد الله به حاصل لا محالة.

﴿٦٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾

إن الله طرد الكفار من رحمته وجنته، وحلَّ عليهم غضبه وسخطه، وهيأ لهم نارًا موقدة تحرق أجسامهم وتشوي وجوههم.

﴿٦٥﴾ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

والكفار ماكثون في نار جهنم أبدًا لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، وليس لهم ولي يتولى شؤونهم ويدفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم فيخرجهم من نار جهنم.

﴿٦٦﴾ ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾

يوم تُقلب في النار وجوه الكفار في ذلّ وخسار، يقولون من شدة الحسرة والندم: يا ليتنا أطعنا الله فاتقيناه وأطعنا الرسول فاتبعناه.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾

وقال الكفار يوم العرض على الواحد القهار: ربنا، إنا اتبعنا قادتنا في الشر وأئمتنا في الغواية وأكابرنا في الكفر فحرفونا عن طريق الهداية وحرفونا عن الحق المنزل على الرسول ﷺ.

﴿٦٨﴾ ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾

ربنا ضاعف العذاب لمن أضلنا من أئمتنا واطردهم من رحمتك ومن جنتك طردًا شديدًا، وفي هذا برهان على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وأن من أطاع غير الله وغير رسوله ﷺ طاعة تخالف الشرع فإنه مستوجب لغضب الله وسخطه ولعنته وعذابه، فليحذر المسلم.

﴿٦٩﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

يا أيها المؤمنون: لا تؤذوا رسولكم ﷺ بقول أو فعل فتفعلوا فعل اليهود الذين آذوا رسولهم موسى -عليه السلام- بالسب والانتقاص وقول الزور، فبرأ الله موسى مما قالوا، وكان موسى عند الله عظيم الجاه كبير القدر رفيع المنزلة.

﴿٧٠﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

يا أيها المؤمنون: اتقوا الله بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه، وإخلاص الطاعة لله وصدق المتابعة لرسوله ﷺ، وقولوا القول الصائب الصادق المستقيم السليم من الكذب والزور والإثم والباطل في جميع أموركم وفي سائر شؤونكم.

(٧١) ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

فأنتم إذا اتقيتم الله حق تقواه ولزمتم القول الصائب السديد أصلح الله لكم أعمالكم وغفر لكم سيئاتكم، وفي هذا عظيم أثر القول على العمل ووجوب حفظ اللسان، ومن يطع الله بالعمل بشرعه ويطع الرسول ﷺ باتباع سنته فقد نال العز وفاز بالكرامة وحاز الرضوان وأدرك النعيم.

(٧٢) ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

إن الله عرض الأمانة - وهي كل ما أوجبه على عباده من أمر ونهي وحلال وحرام، وذلك مجموع ما أُرسل به الرسول ﷺ - عرض ذلك على السموات والأرض والجبال فامتنعت أن تحمل هذه الأمانة خوفًا من عدم الوفاء بحملها وعجزًا عن القيام بأدائها، والتزم الإنسان -على ضعفه- حبها وقبل تحمل هذه الأمانة، إنه كان ظلومًا لا يعدل، جهولاً لا علم عنده، فبالعلم والعدل يحوز العبد كمال الولاية.

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وحمل الإنسان الأمانة فيظهر عند حملها المسلم من الكافر، والصادق من المنافق؛ ليعذب المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام والمنافقات والذين يشركون مع الله في عبادته والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بقبول الحسنات وغفران السيئات والنجاة من العذاب، والله كثير الغفران لمن تاب، رحيمٌ بمن أناب، يدعو إلى التوبة ولا يستعجل بالعقوبة.

مكية

سورة سبأ

ترتيبها ٣٤ | آياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

الثناء الجميل، والشكر الجزيل، والمجد الجليل، لله وحده تقدست أسماؤه، الذي له ملك كل ما في السموات وما في الأرض وتدبيره، فله الثناء الكامل، والمجد التام يوم القيامة، وهو الحكيم في قوله وفعله، الخبير بأمره وخلقه.

(٢) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾

الله يعلم كل ما يدخل في الأرض من ماءٍ ودواب، وغير ذلك، ويعلم ما يخرج من الأرض من ماء ومعدن ونبات، ويعلم ما ينزل من السماء من الملائكة والكتب والأمطار، ويعلم ما يصعد إلى السماء من الملائكة وأعمال العباد، وهو الرحيم بخلقه فلا يعاجل العقوبة لمن عصاه، كثير الغفران لذنوب من عاد إليه وطلب عفوه.

(٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ۖ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

وقال الكفار المكذبون بيوم الحساب: لن تقوم القيامة أبدًا، قل لهم - أيها النبي -: بلى لتقومنَّ، وأقسم بربي لتأتينكم الساعة، ولا يعلم زمن قيامها إلا الله وحده الذي لا يغيب عنه وزن نملة صغيرة في السموات والأرض ولا دون ذلك ولا أكبر من ذلك إلا هو مكتوب في اللوح المحفوظ بوضوح وبيان.

٤ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

ليثيب الله المؤمنين الصالحين أعظم الثواب، مع غفران الذنوب ونيل الكرامة والفوز بالخلود في جنات النعيم .

٥ ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

والذين سعوا واجتهدوا في محاربة الله ورسوله ﷺ والصد عن سبيل الله والكيد لأوليائه وهم مشاقون لله مغالبون لشرعه فأولئك لهم أفظع العذاب وأشد العقاب يوم الحساب.

٦ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

وأهل العلم العارفون بالله وبأمره يعلمون ويتيقنون أنّ القرآن المنزل من الله على رسوله ﷺ حقٌ لا شك فيه ولا ريب، وأنه يدل على سبيل النجاة ويرشد إلى طريق السعادة ويهدي إلى صراط الله العزيز الذي يذل من غالبه ويخذل من حاربه الذي قهر سواه، وأعز من تولاه، مستوجب الحمد والمدح على جميل أقواله وكريم أفعاله وحسن شرعه.

٧ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

وقال الكفار فيما بينهم - سخريةً منهم واستهزاءً بالرسول-: هل نرشدكم إلى رجل (يقصدون الرسول ﷺ) يخبركم أنكم إذا متم وأكلت الأرض أجسامكم أنكم بعد ذلك تعودون إلى الحياة من جديد وتُبعثون من قبوركم؟ قالوا ذلك منكرين مستبعدين وقوعه.

٨ ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾

اختلقَ النبيُّ ﷺ -على زعمهم- كذبًا على الله وادعى أن الله أرسله -وحاشاه-، بل به جنون فهو لا يعقل ما يقول؟ وقد كذبوا، فيما قالوا بل نبي الله ﷺ مرسل من عند ربه، لكنهم يكذبون بالبعث بعد الموت، وينكرون الآخرة، وسيكونون في عذاب دائم في نار جهنم، وهم بعيدون عن الرشد لم يوفقوا للهدى والصواب.

٩ ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

أفلم يشاهد الكفار خلق الواحد القهار وبديع صنعه فيما أمامهم وما وراءهم من خلق السماء والأرض الذي يدهش العقول ويحير الأفكار؟ ولو أراد الله لخسف بالكفار الجاحدين الأرض كما فعل بقارون، أو نزَّل عليهم قطعًا من العذاب كما عذب قوم شعيب يوم أنزل الله عليهم نارًا من السماء أحرقتهم، إن في خلق الله وبديع صنعه لبرهانًا ساطعًا ودليلاً واضحًا لكل عبد يعود إلى ربه تائبًا ويرجع إليه منيبًا يخلص له العبادة ويفرده بالألوهية.

١٠ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾

ولقد أعطى الله داود -عليه السلام- نبوةً وعلمًا وزبورًا وملكًا عظيمًا، وأمر الله الجبال والطير أن تسبح معه، وألان الله له الحديد فأصبح كالعجين في يده، يحوله على أي شكل أراد.

١١ ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وأمر الله داود أن يصنع دروعًا واسعات محكمات، وأن يجعل المسامير على حجم فتحات الدروع، فلا تكون الحلقة ضيقة فيضعف المسمار فلا تحمي الدروع لابسها، ولا يجعل الحلقة كبيرة فتثقل الدروع على حاملها، وأمر الله داود وأهله أن يخلصوا له العبادة ويتقوه حق تقواه، فإنه سبحانه مطلع على ما خفي وما ظهر من الأعمال، لا تخفى عليه خافية.

١٢ ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وسخر الله الريح لسليمان تجري من أول النهار إلى نصفه مسيرة شهر، ومن نصف النهار الثاني إلى الليل مسيرة شهر بسير الناس المعروف، وأذاب الله النحاس وأصبح سائلاً كالماء يتحكم فيه بما أراد ويصنع به ما أحب، وسخر

الله لسليمان الجن، منهم من يعمل بين يديه طائعًا ذليلاً بإذن الله وتسخيره، ومن يعص أمر الله منهم ولا يأتمر بأمر سليمان يصليه الله عذاب جهنم الموقدة.

﴿١٣﴾ ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾

يعمل الجن لسليمان ما أراد من مساجد للصلاة وصور من نحاس وزجاج ويعملون له أشكالاً عجيبة مما أحب، وقصاعًا واسعة عظيمة كالأحواض الكبيرة التي يجتمع فيها الماء، وقدورًا للطعام ثابتات لا تضطرب لسعتها وضخامتها، وأمر الله آل داود أن يشكروا نعمه بلزوم طاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه، وقليل من الناس من يشكر الله على نعمه الجليلة، والكثير منهم جاحد مقصر في الشكر، وداود من القليل الشاكر.

﴿١٤﴾ ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

فلما كتب الله على سليمان الموت وحان أجله وتمت مدته مات عليه السلام واقفًا معتمدًا على عصاه، وما علم الجن أنه مات وهم يعملون بين يديه حتى أتت الأرضة فأكلت عصاه فوقع -عليه السلام-، عندها تيقن الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما مكثوا في الشغل الشاق المذل والعمل المضني لسليمان؛ لأنهم كانوا يحسبونه حيًا ينظر إليهم وهو قد مات!! وفي الآية الرد على من ادعى أن الجن يعلمون الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله وحده.

﴿١٥﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

لقد كان لقبيلة سبأ في اليمن برهان عظيم على قدرة الله وعظمته سبحانه، هذا البرهان هو بستانان عن يمين وشمال الوادي، أو أن كل بيت من بيوتهم يحفه بستانان، وأمرهم ربهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروا نعمه ويستعينوا بها على طاعته، فإن أرضهم كريمة التربة عذبة الماء، حسنة الهواء، وربهم الله غفار للذنوب ستار للعيوب.

﴿١٦﴾ ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

فأعرض أهل سبأ عن طاعة الله واتباع رسله وشكره على نعمه، فأرسل الله على قراهم السيل الجارف القوي، فخرَّب سدهم ودمَّر قراهم واقتلع شجرهم وأغرق دوابهم، وبدلهم الله مكان البساتين الخُضْر والحدائق الغناء، جنتين دون الأولى، لشجرها ثمر مُرٌّ كريه الطعم، وأثل لا ثمر فيه، وقليل من شجر النبق كثير الشوك.

﴿١٧﴾ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾

ذلك التبديل من الأحسن إلى الأسوأ بسبب إعراضهم وكفرهم وعدم شكرهم، وما يعذب الله ولا يعاقب إلا من كفر النعم وأعرض عن الحق؛ جزاءً على فعله القبيح.

﴿١٨﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

وجعل الله بين أهل سبأ في اليمن وقرى الشام التي بارك الله في أرضها مدنًا متصلة بعضها ببعض، وجعل الله السفر في هذه القرى معلومًا محددًا من مكان إلى مكان لا مشقة فيه، وأمرهم الله أن يسافروا في تلك القرى في أي ساعة من ليل أو نهار وهم في أمن وفي نعمة، قد أطعمهم الله من الجوع، وأرواهم من العطش، وآمنهم من الخوف.

﴿١٩﴾ ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

ولكنهم تجاوزوا الحدود وطغوا وبغوا وسئموا النعيم وملوا رغد العيش والراحة والأمن، وقالوا في بطرٍ وأشر: يا ربنا، اجعل بين قرانا مسافات متباعدة حتى لا يفد إليهم محتاج ولا يصل إليهم فقير، وحتى لا تبقى في طريقهم أرض عامرة فينقطع المسافرون، وقد ظلموا أنفسهم بالشرك وكفر النعم والاعتداء في الدعاء، فأهلكهم الله ودمَّرهم وأباد

خضراءهم وشتت شملهم ومزقهم في الديار، وخرَّب بلادهم، إن فيما وقع بأهل سبأ لعظةً عظيمة لكل من صبر على أقدار الله المؤلمة، وصبر على أداء الطاعات وصبر على اجتناب المعاصي، وأكثر من شكر ربه بطاعته وامتثال أمره.

﴿٢٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولقد ظن الشيطان ظنًا غير يقين أنه سيغوي كل البشر، وأنهم سوف يتبعونه في غوايته، فصدقوا ظنه فاتبعوه واقتدوا به في معاصي الله إلا طائفةً من أهل الإيمان بالله ورسله، فإنهم أخلصوا لله العبادة وأفردوه بالتوحيد.

﴿٢١﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

وما كان للشيطان على الكفار من وسيلة يقهرهم بها ويجبرهم على الكفر، ولكن قدر الله أن يفتن الناس به ويمتحنهم بتزيينه وتسويله؛ ليظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، ولو لم يكن هناك ابتلاء لما تميز الأبرار عن الأشرار، وربك على كل شيء حفيظ، يطلع عليه ويحصيه ويحاسب عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿٢٢﴾ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: ادعوا من زعمتموهم شركاء لله في خلقه وعبادته فصرفتم لهم شيئًا من العبادة فاقصدوهم في حوائجكم فلن تجدوا عندهم إجابة؛ لأنهم عاجزون عن تلبية أي سؤال، فهم لا يملكون وزن نملة صغيرة في السموات ولا في الأرض، وليس لهم أي حصة أو قسم من هذا الخلق، فالله خالقه ومالكه ومدبره وحده، والله لم يستعن حين خلق السموات والأرض بأحد من المشركين ولا من آلهتهم المزعومة، بل هو المتفرد بالخلق والرزق، فحقه أن يُعبد وأن يُوحَّد وأن يُفرد بالعبادة ولا يُجحد.

﴿٢٣﴾ ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

ولا تنفع شفاعة من يشفع عند الله إلا إذا أذن الله للشافع بالشفاعة ورضي عن المشفوع له، والله عز وجل إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه وَجِلُوا من عظمته وخافوا من هيبته حتى يغشاهم مثل الإغماء من شدة الفزع، فإذا زال عنهم الخوف قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فتجيب الملائكة: قال الحق وهو العلي علو ذاتٍ وقدرٍ وقهرٍ، الكبير على كل شيء الذي له العظمة والكبرياء.

﴿٢٤﴾ ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

سل - أيها النبي- الكفار: من الذي يرزقكم من السموات بإنزال الغيث ومن الأرض بالثمار والزروع والكنوز وغير ذلك؟ فإنهم يعترفون أن الله هو الرازق وحده، فإن أنكروا فقل لهم: الله -سبحانه- هو الرازق لا سواه، وإن إحدى الطائفتين منا ومنكم لراشدة صائبة، أو أنها ضالة منحرفة.

﴿٢٥﴾ ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قل - أيها النبي- للكفار لا تُسألون عن خطايانا ولا نُسأل عن أعمالكم؛ لأننا نبرأ إلى الله منكم ومن شرككم.

﴿٢٦﴾ ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: الله يجمع بيننا وبينكم يوم الحساب، ثم يفصل بيننا بالعدل فيما اختلفنا فيه، وهو الفتاح الذي يحكم بين الناس بالعدل ويقضي بالفصل، فقضاؤه يصدر عن عدل؛ لأنه علم أعمال خلقه لا تغيب عنه غائبة.

﴿٢٧﴾ ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قل- أيها النبي - للكفار: أروني بالبرهان الواضح الذين صيَّرتموهم شركاء لله في العبادة، هل خلقوا شيئًا؟ بل أنتم كاذبون في دعواكم، فالخالق الرازق هو الله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له، العزيز ينتقم ممن عاداه ويعز من والاه، الحكيم في خلقه وصنعه وفي تدبيره وشرعه.

﴿٢٨﴾ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

وما أرسلك الله - أيها النبي - إلا رسولاً للبشر جميعًا، فدعوتك عامة للثقلين تبشر من آمن بالأجر العظيم وتنذر من كفر بالعذاب الأليم، ولكن أكثر البشر لا يعلمون الحق الذي بُعثت به ولا يصدقون رسالتك، فهم معرضون عن الهداية.

﴿٢٩﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

ويقول الكفار في استبعاد واستنكار: متى موعد القيامة الذي تَعِدوننا به والذي يحصل فيه القضاء بين الخلق إن كنتم صادقين بأن هذا الوعد واقع لا محالة.

﴿٣٠﴾ ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: لكم وقت محدد وواقع لا محالة، هو يوم الحساب لا تتأخرون عن موعده ساعة من الزمن فتتوبون، ولا تتقدمون إليه ساعة من الزمن فتُعذبون، بل هو موعد معلوم، فخافوا ذلك اليوم وخذوا حذركم منه بطاعة الله.

﴿٣١﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴾

وقال الكفار: لا نصدق بالقرآن ولا بالكتب التي سبقته كالتوراة والإنجيل والزبور، فهم كذبوا كل الرسل وأنكروا كل الكتب، ولو ترى - أيها النبي - إذ الكفار محبوسون عند الله للجزاء، يتكلم بعضهم مع بعض، كلٌ يلقي باللوم على الآخر؛ لرأيت أمرًا هائلاً ومشهدًا فظيعًا، يقول المستضعفون من الرعاع والسفلة والأتباع للمستكبرين من القادة والأعيان والرؤساء الذين دلّوهم على الضلالة: لولا أنكم أغويتمونا عن طريق الحق لآمنا بالله وصدقنا رسوله ﷺ.

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴾

قال السادة والكبراء للضعفاء: هل نحن منعناكم من الإيمان بعدما جاءكم الهدى؟ بل كنتم أشرارًا فجارًا بقبولكم الغواية مختارين، ولم يجبركم أحد.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

وقال الضعفاء للرؤساء: بل خداعكم وتزيين الشر لنا أوردنا المهالك، فقد عرضتم لنا الباطل ليل نهار، ودعوتمونا للكفر بالله والإشراك به، وكتم كلٌ من الطائفتين ندمهم وحسرتهم وخيبتهم حين شاهدوا العذاب أمامهم، وجعل الله الأغلال في أعناق الكفار، ولم يُعذبوا هذا العذاب إلا لكفرهم بالله وصدهم عن سبيله، وفي الآية تحريم اتباع دعاة الضلالة وأئمة الطغيان ورؤوس المبتدعة.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

وما أرسل الله في قرية من رسول يدعو إلى الإيمان بالله وعدم الإشراك به، إلا قال أهل البطر والأشر المنغمسون في البذخ والترف: إنا بما أتيتم به - أيها الرسل - من عند الله جاحدون منكرون.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

وقال المترفون المتكبرون: نحن أكثر منكم - أيها المؤمنون - أموالاً وأولادًا، فرضى الله عنا ميَّزنا عليكم بهذه النعم، وسوف ننجو من العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿٣٦﴾ ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

قل - أيها النبي- للمتكبرين والمترفين: إن الله يعطي الدنيا من يشاء من عباده ويوسع عليه رزقه، ويمنعها من يشاء فيضيق عليه رزقه، لا لمحبة ولا لبغض ولا لهداية ولا لضلالة، بل يفعل الله ذلك ابتلاءً، فلا يظن الموسع عليه أنه

محبوب، ولا يظن المضيق عليه أنه مبغوض، ولكن أكثر الناس لا يعلمون مراد الله وأسراره في خلقه وحكمته في اختياره وابتلائه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾

وليست الأموال ولا الأولاد بالتي تقرب صاحبها من الله فتعلي منزلته وترفع درجته، لكن المؤمنون الصالحون لهم ثواب مضاعفة الحسنات، فالحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله، وقد تكون أموالهم وأولادهم إذا صدقوا مع الله من أسباب المضاعفة، وهؤلاء المؤمنون في أرفع منازل الجنة وأعلى مراتبها آمنون من العذاب والموت وأنواع الهموم والغموم والأحزان.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

والذين يجتهدون في إبطال حجج الله والرد على براهينه التي أنزلها على رسله ويحاربون أولياءه مشاقين لله ولرسوله ﷺ معادين للحق، هؤلاء في نار جهنم تحضرهم الزبانية وتسحبهم على وجوههم سحبًا إلى النار.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

قل - أيها النبي - للمتكبرين المترفين المغترين بالدنيا: إن الله يوسع على من يشاء من عباده في الرزق ويضيِّق على من يشاء من عباده؛ لسر يعلمه ولحكمة أرادها؛ ابتلاءً منه لخلقه، وما بذلتم في سبيل الله من مال أو نفع فإن الله سوف يعوضه لكم في الدنيا بزيادة الرزق وفي الآخرة بالأجر العظيم، وهو سبحانه خير الرازقين، يعمُّ نواله الجميع ويعطي البر والفاجر، ولا يرجو من العبد بإعطائه نفعًا، فاطلبوا الرزق من الواحد الأحد، وابذلوا الأسباب الشرعية في الكسب.

﴿٤٠﴾ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم يجمع الله المشركين وآلهتهم التي عبدوها من دون الله من الملائكة، ثم يقول الله للملائكة - مبكتًا المشركين -: أهؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فهل رضيتم بذلك؟ والله يعلم حقيقة الأمر.

﴿٤١﴾ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾

فأجابت الملائكة: ننزِّهك يا ربنا عن شرك من أشرك بك في العبادة، فأنت وحدك إلهنا ووليُّنا الذي نخلص له الطاعة ونفرد له العبادة، بل كان المشركون يعبدون الشياطين ويصدقونهم فيما يقولون ويطيعونهم فيما يأمرون.

﴿٤٢﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

وفي يوم القيامة لا يستطيع المعبودون جلب النفع لمن عبدوهم أو دفع الضر عنهم، ويقول الله للكفار الظالمين لأنفسهم بالشرك والذنوب: ذوقوا ما كنتم تكذبون به في الدنيا من عذاب النار.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

وإذا قرئ القرآن على الكفار وصارت آياته معلومة واضحة لديهم، قالوا: ما محمد إلا إنسان يرغب في منعنا من عبادة أصنامنا وأوثاننا التي كان يعبدها آباؤنا، وقالوا: ما هذا القرآن الذي جئت به يا محمد إلا زور وبهتان، وقال الكفار: إن القرآن سحرٌ ظاهر واضح لا يشك في ذلك أحد.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾

وما أنزل الله على الكفار قبل القرآن كتبًا ترشدهم إلى أن ما جاء به الرسول ﷺ سحر، وما بعث الله للكفار رسولاً قبل محمد ﷺ يخوفهم عذاب الله.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

وكذب الذين سبقوا كفار مكة كعاد وثمود بآيات الله ورسله، وما بلغ كفار مكة عشر ما أعطى الله الأقوام السابقين من القوة والثراء والبأس وتتابع النعم والبسطة في الأجسام ونحو ذلك، فكذبت تلك الأمم رسلهم ودمر الله المكذبين، فانظر وتفكر ما أشد عقوبة الله لمَّا أنكر عليهم، وما أقوى بأسه لمَّا انتقم منهم.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾

قل - أيها النبي - لهؤلاء الكفار: إنما أنصح لكم بطريقة واحدة، أن تنهضوا لإجابة داعي الله اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، ثم تتفكروا وتتأملوا حالة الرسول ﷺ وما ادعيتم عليه من جنون، فالرسول ﷺ ليس إلا منذرًا لكم بعذاب جهنم إن كفرتم بالله وكذبتم رسوله ﷺ، وإنما دعاهم للتفكر اثنين وواحدًا؛ ليكون ذلك أدعى لصفاء الذهن والبعد عن ضوضاء الناس.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: ما طلبتُ منكم أجرة على تبليغ رسالتي ودعوتي لكم، فهي لكم ولا أطلبُ منكم شيئًا، إنما أجري على تبليغ دعوة ربي على الله وحده، وهو مطلع على عملي وعملكم، لا تغيب عنه غائبة، وسيحاسب الجميع على ما فعلوا، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿٤٨﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾

قل - أيها النبي - لمن جحد الإيمان وكذبك: إن ربي يرمي الباطل بحجج من الحق فيسحقه ويمحقه، والله يعلم ما غاب عن الأبصار، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن علمه غائبة.

﴿٤٩﴾ ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: جاء الحق من الله والهداية الربانية، وغرب الباطل واضمحل الكفر وانهزم أصحابه، ولم يبق للباطل نصيرٌ يبدؤه ويعيده ويحميه وينصره.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾

قال - أيها النبي -: إن انحرفتُ عن الهدى فذنب انحرافي على نفسي، وإن استقمتُ على الطريق المستقيم فبسبب ما أنزل الله عليَّ من كتاب وسنة، إن ربي سميع لكل الأقوال، يسمع من دعاه، قريب ممن ناجاه وناداه.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾

ولو شاهدت - أيها النبي - إذ خاف الكفار أشد الخوف حين أبصروا العذاب لشاهدت أمرًا مهولاً، فلا نجاة لهم من العذاب ولا مهرب لهم منه، وأُخذ الكفار إلى النار من محل دانٍ قريب الأخذ ليس ببعيد.

﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾

وقال الكفار - بعدما أبصروا عذاب جهنم -: آمنا بالله وصدقنا رسوله ﷺ، وكيف يستطيعون الإيمان في هذا الوقت وقد فات الأوان وقد بعُد المكان والزمان بهم عن الإيمان، فقد حيل بينهم وبينه؛ لأن وقت الإيمان ومكانه في الحياة الدنيا لا في الآخرة.

﴿٥٣﴾ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾

وقد كذب الكفار برسالة الرسول ﷺ وكفروا بالله، وهم يرمون بالظنون الخاطئة من محل بعيد عن إصابة الحق، وليس لهم دليل على ظنهم ولا برهان على حسبانهم الباطل، ولا يصيب الحقَّ إلا من كان على بينة من ربه ولديه حجة من الله، كما أن رامي الهدف إذا ابتعد عنه لا يصيبه وإنما يرمي على الظن.

٥٤ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

وحيل بين الكفار والإيمان بالله الواحد القهار والتوبة والاستغفار والرجوع إلى هذه الدار، مثلما فعل الله بمن يشبههم من القرون المتقدمة، إن الكفار كانوا في الحياة الدنيا في شكٍ من الإيمان بالله ورسله والبعث بعد الموت والحساب، وهذا الشك أحدث لهم قلقًا وريبةً فكفروا وكذبوا.

مكية

سورة فاطر

آياتها ٤٥ | ترتيبها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الثناء الجميل والشكر الجزيل والحمد الجليل لله وحده الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما وأنشأهما على غير مثال سابق، الذي جعل الملائكة رسلاً من عنده بالوحي إلى من أراد من الناس، يتنزلون بأمره ونهيه، ومن قدرة الله العظيمة أن جعل للملائكة أجنحة متعددة، منهم من عنده جناحان أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر من ذلك يطير بها في السماء؛ ليؤدي رسالة الله إلى عباده، إن الله على كل شيء قدير لا يصعب عليه أمر، ولا يستعصي عليه شيء.

٢ ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ما يفتح الله للناس وما يعطي العباد من النعم الظاهرة والباطنة كالمال والولد والصحة والعلم والهداية والفهم والقبول وغير ذلك فلا أحدَ من البشر يستطيع أن يمنع هذا العطاء أو يرد هذه الرحمة، وما يمنع الله عن أحد من عباده هذه النعم لا يستطيع أحد من خلقه أن يوصلها إلى أحد من عباد الله إذا أراد الله حرمانه منها، فلا يجلب الخير إلا الله، ولا يدفع الشر إلا الله، فمن أراد العزة والنصر والرزق والتأييد والرفعة والهداية فليطلبها ممن يملكها وحده -سبحانه- ولا يطلبها من الناس، فإنهم لا يعطون ولا يمنعون، ولا ينفعون ولا يضرون، ولا يحيون ولا يميتون، ولا يعزون ولا يذلون، فإنما المعطي والمانع والنافع والضار والمحيي والمميت، والمعز والمذل هو الله وحده لا إله إلا هو ولا رب سواه، فلتُخلص له العبادة وليفرد بالطاعة، وهو العزيز الذي يعز من والاه ويذل من عاداه ويقهر من غالبه ويخذل من حاربه، الحكيم في خلقه وصنعه وتدبيره وشرعه.

٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

يا أيها الناس، اذكروا نعمة الله عليكم بشكرها بالقلوب والألسن والجوارح، فمن أطاعه فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره، هل تعلمون لكم - أيها الناس - خالقًا غير الله يرزقكم من السماء بالغيث ومن الأرض بالماء والثمار والزروع والمعادن وغير ذلك، لا يستحق العبادة بحق إلا الله لا شريك له ولا رب سواه، فكيف تُصرفون عن طاعته وتوحيده وعبادته بعدما عرفتم فضله وإحسانه.

٤ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

وإن يكذبك الكفار - أيها النبي - فقد سبق للأمم التي قبلهم أن كذبوا رسلهم، فاصبر كما صبر أولئك الرسل، فإلى الله تعود كل الأمور؛ ليحاسب الجميع على ما فعلوا فيثيب المؤمن ويعذب الكافر.

٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

يا أيها الناس إن ما وعدكم الله به من البعث بعد الموت وقيام الساعة حق لا شك فيه، فأعدوا العدة لذاك اليوم بالتزود بالعمل الصالح، ولا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخرفها وبريق زينتها ومراتع شهواتها، ولا يخدعنكم عن الله وعن طاعته الشيطان الرجيم؛ فإنه خدّاع يحبب إليكم المعاصي ويكره لكم الطاعات.

٦ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

إن الشيطان عدوٌ لكم - أيها الناس - فتهيؤوا لعداوته واحذروا من فتنته وخالفوه ولا تطيعوه، إنما يدعو الشيطان أتباعه إلى الغواية ليكونوا من أصحاب نار جهنم الموقدة.

٧ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وحاربوا أولياءه لهم عذاب شديد في نار جهنم، والمؤمنون الصالحون لهم عند الله غفران الذنوب وستر العيوب والثواب الجزيل في الجنة دار الأمن والنعيم المقيم.

٨ ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾

أفمن حسَّن له الشيطان أفعاله القبيحة من الكفر والتكذيب وسائر الذنوب فرأى هذا الفعل القبيح حسنًا جميلاً، هل مثله كمن هداه الله فرأى الجميل جميلاً والقبيح قبيحًا وميَّز بين الحق والباطل؟ فإن الله يضل من أراد من العباد، ويهدي من أحب إلى طريق الرشاد، فلا تهلك نفسك - أيها النبي - حزنًا على تكذيب الكفار، إن الله عليم بسوء أفعالهم وسوف يحاسبهم على ذنوبهم.

٩ ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

والله سبحانه هو الذي أرسل الرياح فتحرك الغمام، فيسوقه الله بها إلى بلدٍ جدب أصابه القحط؛ فيحيي الله نباته بالماء، فتصبح الأرض مخضرة بالنبات بعد اليبس، فكما أن الله أحيا الأرض الميتة بالماء كذلك يخرج الله الأموات من القبور أحياء.

١٠ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

من كان يطلب من الناس العزة في الدنيا والآخرة فليطلبها إلى الذي يملكها وهو الله وحده بطاعته واتباع رسوله ﷺ؛ فلله العزة جميعًا، والله المعز لمن أطاعه والمذل لمن عصاه، فمن اعتز به أعزه ونصره، ومن اعتز بغيره أذله وخذله، إليه - سبحانه - يصعد ذكره، والعمل الصالح يرفع الذكر إليه؛ أو أن الله - سبحانه - هو الذي يرفع العمل الصالح ويتقبله، والذين يعملون الخطايا لهم عند الله عذاب شديد، ومكرهم يضمحل ويبطل ولا ينفعهم شيئًا؛ لأن الله خير الماكرين يبطل مكر من مكر.

١١ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

والله خلقَ أباكم آدم - أيها الناس - من تراب، ثم خلق ذريته من سلالة من المني الماء الضعيف المهين ثم أخرجكم رجالاً ونساءً، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا والله يعلم حملها، وما يطول عمر معمر ولا ينقص من عمر إنسان إلا مسطور عند الله في اللوح المحفوظ، قد علم الله ذلك كله وأحصاه واطلع عليه وقدره بالزيادة والنقص قبل أن يخلق الخلق، إن خلقكم ومعرفة آجالكم وقدر أعماركم وجميع أحوالكم سهلٌ يسير على الله تعالى.

١٢ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وما يستوي البحران: بحر عذب ماؤه شديد العذوبة يسيرٌ نزوله في الحلق، يُذهِبُ الظمأ ويأتي بالري، وبحر شديد الملوحة، ومن كلا البحرين تأكلون سمكًا لذيذًا طريًا، وتستخرجون من البحرين لؤلؤًا ومرجانًا تلبسونها للزينة والتجمل، وتشاهد السفن العظيمة تشق الماء لتطلبوا عليها الرزق من تجارة ونحوها، وفي هذا كله برهان على قدرة الله وعظمته ووحدانيته، ولعلكم تشكرون الله على نعمه بلزوم طاعته وإخلاص العبادة له.

١٣ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾

والله يدخل من وقت الليل في وقت النهار فيطول النهار بقدر ما نقص الليل، ويدخل من وقت النهار في الليل فيطول الليل بقدر ما نقص من النهار، والله ذلل الشمس والقمر كلٌّ منهما يسعى إلى وقت محدد وزمن معلوم، والذي فعل ذلك كله هو الله ربكم الخالق الرازق المدبر الذي يستحق العبادة وحده، والذين تعبدونهم من دونه من الشركاء والأولياء ما يملكون في السموات والأرض قطميرًا؛ وهي القشرة الرقيقة التي على النواة.

١٤ ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

إن تدعوا - أيها العباد - هذه المعبودات من دون الله لتطلبوا منها جلب خير أو دفع ضر فهي لا تسمع دعاءكم، ولو سمعت فرضًا ما أجابت سؤالكم، ويوم القيامة تتبرأ هذه المعبودات ممن عبدها من دون الله، ولا أحد يخبرك عن أي أمر أصدق وأعلم من الله العليم الخبير.

١٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

يا أيها الناس، أنتم المحتاجون إلى الله في كل شيء، لا تستغنون عنه طرفة عين، فرزقكم وتدبير أموركم وتصريف شؤونكم بيده وحده لا بيد غيره، والله سبحانه غني عنكم وعن كل أحد، لا يحتاج إلى مخلوق ولا تنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاصٍ، وهو المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، له الكمال المطلق - سبحانه - وتنزَّه عن العيب والنقص.

١٦ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

إذا أراد الله أهلككم - أيها العباد - وأفناكم إذا عصيتموه وخلق قومًا آخرين يطيعونه فيما أمر ويجتنبون ما عنه نهى وزجر.

١٧ ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

وما إهلاككم - أيها الناس - إن عصيتموه والإتيان بخلق غيركم أطوع لله منكم بعسير صعب على الله، بل هو سهلٌ يسير؛ لكمال قدرته سبحانه.

١٨ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ولا تحمل نفس عاصية إثم نفس أخرى، فالبريء لا يتحمل خطايا العاصي، بل كلٌّ يُسأل عما فعل، وإن تطلب نفسٌ محملةٌ بالذنوب من يحمل عنها من ذنوبها فَلَنْ تجد من يحمل من ذلك شيئًا، ولو كان الذي طلبت منه ذلك الطلب من أهل القرابة والصلة فإنها لا تنفع في الآخرة، فالنجاة بالأعمال لا بالأنساب، إنما تحذر - أيها النبي - بهذا القرآن من خاف عقاب الله بالغيب قبل أن يراه، وأدى الصلاة على أكمل وجه كما شُرِعت، ومن تطهر من الكفر وسائر

الذنوب، فإنما نفع ذلك لنفسه، وإلى الله وحده يرجع الخلائق يوم القيامة فيحاسب كلاً على ما فعل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

١٩ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾

وما يستوي الأعمى عن الحق الذي لا يبصر طريق الرشاد، والبصير الذي أبصر الحق وسلك طريق الهدى واتبع الرسول ﷺ.

٢٠ ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾

وما تستوي ظلمات الكفر والضلالة والمعاصي ونور الإيمان بالهدى والطاعة.

٢١ ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾

وما يستوي ظل الإيمان الوارف البارد ولا ريح الكفر الحارة المحرقة.

٢٢ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾

وما يستوي من أحيا الله قلبه بالإيمان وأنار بصيرته بالتقوى ولا من أمات الله قلبه بالكفر وأعمى بصيرته عن الهدى، إن الله يُسمع الحق من أراد من عباده سماعَ قبول وفقهٍ واستجابة، ولا تستطيع - أيها الرسول - إسماع الأموات في المقابر، فكذلك لا تستطيع إسماع الكفار الحق الذي بُعثت به؛ لأن قلوبهم ميتة وبصائرهم مطموسة.

٢٣ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾

ما أنت - أيها الرسول - إلا مخوِّف للكفار من غضب الله وعذابه.

٢٤ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

إن الله أرسلك - أيها النبي - بالحق تدعو إليه وتعمل به، وتبشر المؤمنين بجنات النعيم وتنذر الكافرين بنار الجحيم، وما من أمة من الأمم إلا قد أرسل الله لها رسولاً يحذرها من عذاب الله والكفر به وتكذيب رسله، ويأمرها بعبادة الله وحده.

٢٥ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

وإن يكذبك الكفار - أيها النبي - فقد كذبت الأمم السابقة أنبياءهم بعدما جاءتهم الرسل بالبراهين الواضحة والمعجزات الظاهرة الدالة على وحدانية الله وصدق الأنبياء، وأتوا إلى أقوامهم بالكتب المجموع فيها الحق والشريعة، وأتوا بالكتاب المنير البيّن الواضح الذي يدل على الحق ويحذر من الباطل.

٢٦ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

ثم أخذ الله الكافرين بشتى العقوبات، فتأمل كيف كان إنكار الله لفعلهم وكيف حلَّت عقوبته بهم فانتقم منهم أشد الانتقام.

٢٧ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسقى به الأرض فأنبتت نباتًا وأثمرت ثمرًا مختلف الألوان والطعوم والأشكال، وخلق الله من الجبال طرائق منها الأبيض والأحمر مختلف ألوانها، وخلق الله من الجبال جبالاً سودًا شديدة السواد، فسبحان من نوّع الألوان وخالف بين الأصناف بقدرته.

﴿٢٨﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾

وخلق الله من البشر وكل ما دبَّ على وجه الأرض، ومن الإبل والبقر والغنم ما هو مختلف الألوان أيضًا كالأبيض والأحمر والأسود وغير ذلك مثل اختلاف ألوان النبات والثمار والجبال؛ فسبحانه من مبدع عظيم، إنما يتقي الله حق تقاته ويخشاه حق خشيته ويقدره قدره أهل العلم الراسخون فيه؛ لأنهم العالمون بأسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه وما له من تعظيم جل في علاه، وذكر العلماء بعد تلك المخلوقات؛ لأنهم أكثر الناس تفكرًا وتأملاً في مواقع القدرة وعجائب الخلق؛ فهم أهل تدبر وفقه لآيات الله الكونية والشرعية، إن الله عزيز يعز من والاه ويذل من عاداه ويخذل من غالبه ويقهر من حاربه، كثير الغفران لعباده، يتجاوز عن سيئاتهم ويعفو عن زلاتهم.

﴿٢٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾

إن الذين يقرؤون القرآن ويتدبرون معانيه ويعملون به، ويداومون على أداء الصلاة على أكمل وجه وأتم هيئة كما شُرعت ويتصدقون في سبيل الله مما أعطاهم الله سواءً صدقة الواجب أو النفل، سرًا بحيث لا يراهم أحد وجهرًا بإخلاص حيث يقتدي بهم الناس، يؤملون من وراء تلك الأعمال الصالحة مكاسب عند الله لا تكسد ولا تضمحل، يحفظها لهم ليوفيها إياهم يوم يلقونه.

﴿٣٠﴾ ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾

يجزل الله لهم على ما قدموا من أعمال البر أعظم الجزاء وأرفع الثواب، ويتفضل عليهم بمضاعفة الحسنات، فإنه غفور لسيئاتهم يعفو عن زلاتهم، شكور لحسناتهم يأجرهم عليها بالفوز برضوانه وسكنى جناته.

﴿٣١﴾ ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾

والذي أوحى الله إليك - أيها النبي- من القرآن الكريم هو الحق المصدق لما نزل قبله من الكتب كالتوراة والإنجيل، إن الله مطلع على أحوال العباد بصير بأقوالهم وأفعالهم، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما أسروا وما أعلنوا.

﴿٣٢﴾ ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾

ثم أعطى الله القرآن - بعدما أهلك القرون السابقة - من اختارهم من أمة الرسول ﷺ وهداهم إلى سبيله، ووفقهم لطاعته، فمن هؤلاء من يظلم نفسه بترك بعض الواجبات وارتكاب بعض المحرمات، ومنهم السابق بالخيرات؛ وهو من يؤدي الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات ويسارع إلى الصالحات، وهذا الإعطاء والاختيار لهذه الأمة هو الفضل الكبير من الله؛ لأنه يحقق سعادة الدنيا والآخرة، وكل صنف من هذه الأصناف ينال من السعادة والفوز على قدر عمله.

﴿٣٣﴾ ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾

يدخل الله هذه الأصناف الثلاثة جنات النعيم في إقامة دائمة ونعيم مستمر، يتجملون في الجنة بأساور من ذهب ولؤلؤ، ويلبسون فيها الثياب الرقيقة من الحرير، الظالم لنفسه يدخل الجنة بالتوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة.

﴿٣٤﴾ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

ويقول هؤلاء الأخيار حين يدخلون الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا كل حزن حيث غمرهم الفرح والسرور والبهجة والحبور، إن ربنا لكثير الغفران، حيث غفر سيئاتنا وعفا عن زلاتنا، وهو شكور سبحانه حيث قبل حسناتنا وضاعفها.

﴿٣٥﴾ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾

الله وحده هو الذي أدخلنا دار الإقامة الدائمة والخلود تفضلاً منه وكرمًا، لا يمسنا في الجنة تعب ولا إعياء ولا نصب ولا وصب ولا صخب.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾

والكفار لهم في الآخرة النار الموقدة المستعرة، تشوي وجوههم وتحرق أجسامهم، لا يكتب الله عليهم الفناء فيرتاحوا، ولا يخفف عنهم من عذابها فيستريحوا، وبمثل هذا العذاب والنكال يعاقب الله كل كافر به مكذب لرسوله جاحد بآياته.

﴿٣٧﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

والكفار في النار يصيحون ويستغيثون من شدة الأهوال والأنكال والأغلال، ويقولون: يا ربنا أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الحياة الدنيا حتى نتوب ونتزود بالصالحات ونترك الأعمال التي كنا نعملها من الكفر والتكذيب والمعاصي، فيقال لهم: أولم يمهلكم الله في الحياة الدنيا وقتًا كافيًا من العمر يعتبر فيه من اعتبر، ويتعظ من اتعظ، وجاءكم الرسول الكريم محمد ﷺ بالبينات من عند ربه فلم تستجيبوا ولم تؤمنوا؟ فذوقوا عذاب النار وبئس القرار، وما لكم من دون الله من أنصار يدفعون عنكم عذاب الواحد القهار.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

إن الله يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض وهو مطلع على السرائر، لا تخفى عليه خافية، وهو عليم بما تخفيه الصدور، فاحذروا عذابه بطاعته؛ فإنه لا تخفى عليه خافية من عملكم ولو أضمرتموه في أنفسكم.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾

الله وحده هو الذي جعلكم - أيها البشر - في الأرض يخلف بعضكم بعضًا في عمارتها، فمن كفر بالله فضرر كفره عليه ولن يضر الله شيئًا، ولا يزيد الكفار كفرهم عند الله إلا بغضًا وكرهًا، ولا يزيدهم كفرهم إلا ضلالاً وهلاكًا وخزيًا وندامة.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني ما الشيء الذي خلقه في الأرض شركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله؟ أم أن لهؤلاء الشركاء حصة ونصيب مع الله في خلق السموات؟ أم أن الله أنزل إليهم كتابًا فهم يتكلمون بدليل منه؟ بل ما يعد الكفار بعضهم بعضًا إلا غرورًا لا حقيقة له وخداعًا لا صدق فيه.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾

إن الله سبحانه هو الذي يمسك السموات والأرض لئلا تزولا عن مكانهما، فهو الذي يثبتهما ويحفظهما وحده، ولئن زالت السموات والأرض عن مكانهما فإنه لا يستطيع أحد أن يمسكهما ويحفظهما غير الله سبحانه، إن الله كان حليمًا في إمهال عقوبته على العصاة، غفورًا لمن تاب من خطاياه.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾

وحلف الكفار أعظم الحلف بالأيمان المغلظة: لئن جاءهم رسولٌ من عند الله يحذرهم عذاب الله ليكونن أكثر إيمانًا وهداية واستقامة من اليهود والنصارى وغيرهم، فلما أرسل الله إليهم محمدًا ﷺ ما زادهم ذلك إلا غيًا وضلالاً وبُعدًا عن الهداية!!

﴿٤٣﴾ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾

وليس حلف الكفار لمقصد حسن ولا لحرصهم على الهداية وإنما هو معاندة واستكباراً، ويقصدون بحلفهم المكر السيئ وخداع الناس؛ لأنهم بهذا الحلف - في الظاهر - كأنهم حريصون على الحق، ولكن الحقيقة أنهم أهل باطل وزور، ومكرهم السيئ لا يقع إلا بهم لا بغيرهم، فماذا ينتظر هؤلاء المعاندون المتكبرون إلا العقاب الذي حل بأمثالهم من القرون الماضية، وهذه سنة الله في كل معاند متكبر، ولن تجد لطريقة الله تبديلاً ولا تحويلاً، فلا يستطيع أحد أن يبدلها عن مجراها ولا يحولها عن طريقتها؛ لأنها ثابتة مستقرة دائمة.

﴿٤٤﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾

أولم يسافر الكفار في الديار فيشاهدوا كيف عاقب الله من سبقهم من المكذبين كعاد وثمود وأمثالهم كيف دمَّر الله ديارهم وخرَّب دورهم حين حاربوه وصدوا عن سبيله، مع أن أولئك المكذبين السابقين كانوا أشد قوةً وأقوى أجسامًا وأكثر عدة من كفار مكة، وما كان الله - تعالى - يستصعب عليه أمر ويفوته شيء في السموات والأرض، بل إن قدرته - سبحانه - نافذة ولا راد لقضائه، إنه كان عليمًا بأفعالهم وأقوالهم، قديرًا على إهلاكهم وإذلالهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾

ولو أن الله يعاقب العباد بسبب ما فعلوا من خطايا وسيئات لما سلم من عذابه دابة تدب على وجه الأرض، ولكن الله يؤخِّر العذاب عن العصاة، ويمهل أهل الذنوب إلى زمن محدد في علمه - سبحانه -، فإذا حل زمن العذاب فإن الله كان بعباده بصيرًا، علم أفعالهم وأحصى أعمالهم، لا يخفى عليه منهم شيء، فيعذبهم وهم مستحقون العذاب، يعلم الطائع من العاصي وسيجازي كلاً بما فعل.